طـــوائف مـن الفكر

الدكتور رجا سمرين

مجموعة من الأبحاث

والمقالات والنقدية

بقلم الدكتور رجا سمرين

الفهرس

1- قراءة في أعمال الزواتي الشعرية صفحة 4

2- أزمة النقد العربي المعاصر صفحة 13

3- بيني وبين الشعراء صفحة 17

4- القصة في الشعر العربي المعاصر صفحة 32

5- في الذكرى المئوية لميلاد فارس السيف والقلم (برهان الدين العبوشي) صفحة 44

6- الأفق الجديد وأمين شنّار بين الواقع والمثال.. صفحة 62

7- مثقف عبقري نادر المثال (الشاعر محمد يوسف) صفحة 66

8- الخيول وأنواع الحيوان الأخرى في الشعر العربي المعاصر صفحة 73

9- الأسنان في اللغة العربية صفحة 82

10- الغربة والاغتراب وأثرهما في الشعر العربي صفحة 86

11- مذبحة دير ياسين وآثارها صفحة 100

قراءة في أعمال الزواتي الشعرية

هذه القراءة نشرت في مجلة (مرآة الأمة الكويتية)، في عددها 757، الصادر في 1986/8/27 صفحة 59. ونشرت في جريدة القدس الصادرة بتاريخ 1986/12/28.

لقد كان الشعر الفلسطيني– ولا يزال وسيظل– من أهم أسلحة المعركة التي خاضها ولا يزال يخوضها شعب فلسطين، فقد مهد الشعراء للثورات وحثوا على إشعالها، وأججوا نيرانها، وألهبوا المشاعر، ومجدوا البذل والفداء والتضحية، وخلدوا الشهداء، وصوروا الهزائم وما ينجم عنها من أحزان ممضة قاتلة، وما يعقبها من إحساس باضياع، ونعوا على العملاء خيانتهم لشعوبهم، وخروجهم عليها، وتنكرهم لآمالها وطموحاتها وكفرهم بمقدرات شعوبهم، وطاقاتها التي لا تحتاج إلّا لمن يفجرها ويطلقها من عقالها.

لقد أدرك حلمي الزواتي كما أدرك غيره من شعراء المقاومة أنه في مرحلة مواجهة مع العدو. فتصدى له وعمل على إفشال خططه، وإبطال مشاريعه. وقد أدرك منذ بداية رحلته مع الكلمة المقاتلة، أن التفاعل بين الكلمة والبندقية هو الذي يعطي للثورة زخمها واستمرارها. فإذا كانت الكلمة هي البوصلة التي توجه سفينة الثورة فإن البندقية هي حارس الكلمة الأمين.، والمدافع المستميت عن حقها في الحرية والانتشار.

والزواتي واحد من شعراء الأرض المحتلة، وهو رمز من الرموز الفكرية الفلسطينية، له ستة عشر مؤلفاً جمعت بين الشعر والرواية والمسرحية والدراسة النقدية والسياسية والإعلام والقانون.

صدر لشاعرنا حتى الآن تسع مجموعات شعرية هي على التوالي: أناشيد الجراح، عبير الدماء، بالحراب على وجه الضياع، وفاتحة الموت والغضب، ثلاثية الموت والارتحال، قبلة على جبين الشمس، قصائد ممنوعة التجوال، ترفض السرج الجياد، آتون من مدن الرماد.

وللزواتي إسهامات في المسرح الشعري، وقد صدر له حتى الآن مسرحيات: لهب الجراح، الرقص على حد السكين، عناق الموت.

وفي مجال الدراسات النقدية، أصدر شاعرنا كتابه: في ربوع الشمس، وكتاب الطفولة والاحتلال، وكتاب الوجه النضالي للأغنية الشعبية الفلسطينية في الكويت.

وفي مجال الرواية صدر له: الإبحار في ذاكرة الوطن. وفي القانون الدولي– وهو الحقل العلمي الذي تخصص فيه– أصدر كتاب حقوق الفلسطينيين بين الواقع النظري والتطبيق العملي في الأرض المحتلة.

بعد هذه المقدمة آن لنا أن نتنسم مع حلمي الزواتي عبير الدماء، وأن نهوي بالحراب مع على وجه الضياع، وأن نتلو معه فاتحة الموت والغضب، وأن نعيش معه ثلاثية الموت والارتحال، وأن نطبع مثلما طبع قبله على جبين الشمس، وأن نتعرف على الرغم من كل أشكال الرقابة وألوان التعتيم على قصائده المنوعة التجوال. وأن نستمتع برؤية جيادة الأصيلة التي ترفض صهواتها السروج وهي تنهب الأرض نهبا نحو فلسطين.

لقد مجد حلمي الزواتي بطولة أبناء فلسطين وبناتها، وعبر في قصائده عن إكباره لصمودهم وتضحياتهم... ومن هذا المنطلق فقد تردد في قصائده ذكر عدد كبير من أسماء الشهداء والشهيدات.

في قصيدة "صورة لنهر لن يجف" يربط الزواتي بين استشهاد منتهى الحوراني واستشهاد سمية خياط، –أول شهيدة في الإسلام. أن دماء سمية ليست إلا أولى القطرات التي بدأت تتدفق في نهر الفداء العربي الذي رفدته منتهى بدمائها التي سفحتها مزنجرات العدو الصهيوني في شوارع جنين. ومنتهى ليست سوى فدائية تسير على خطى جدتها سمية بنت خياط:

وكانت سمية من آل ياسر
وكانـــــــــت دماهـــــــــا
قناديـــل حـــب بجـــوف الظـــلام
تنيـــــــــــر الطريـــــــــق
تنيـــــــــــر المعـــــــــابر

لتحفـــر فـــي ســـفر أجـــدادها
طريـــــــــــق الكفـــــــــــاح
ودرب المخـــــــــــــــــاطر
وهـا منتهـى فـي بـلادي تغـامر
تســـــــــير وتصـــــــــرخ
تهتــف لــلأرض باســم الحرائــر
وباســـــــــم الشـــــــــيوخ
وباســـــــــم الثكـــــــــالى
حملنـــــــــا الخنـــــــــاجر

وفي قصيدة "فاتحة الموت والغضب"، يعبر الشاعر عن سخطه الشديد على بقايا التجار الأمويين المهترئين، وعلى حثالات بني العباس الممتهنين، الذين لم يتورعوا عن الطواف على أبواب ديان ليساوموه ويساوموا صحبه على بيع الأرض والعرض، فدخلوا بهذه المساومة عالم المذلة والهوان من أوسع الأبواب.

في هذه القصيدة يجد الشاعر نفسه مشدودا إلى ماضي أمته المجيد.. إنه يبحر إلى ذلك الماضي عبر آلة زمنه الشعرية.. إنه يأنف من الحياة في ليل العهر المصلوب على أعواد القهر.

لقد أحرقت كفيه عاهات عصره. وحفزته أشلاء مواطنيه المزروعة فوق جمر المحارق وصرخات الجياع من الأطفال الثكالى على أن يخرج صارخاً في وجه العالم قائلا:

مجنـــــون مـــــن يحســـــب
أن الصـــــبر طريـــــق النصـــــر
مجنون من لا يحرث سطح البحر
مـــن لا يحـــرق وجـــه الغـــدر

أجل؛ لقد بلغ السيل الزبى، ولم يعد في قوس الصبر الفلسطيني منزع، ولهذا فإنه لم يعد أمام الشاعر إلا أن يقرأ فاتحة الموت والغضب، ويلج سرداب التاريخ، يفتش عن قائد يقبل عثرة هذه الأمة، التي

ابتليت بهذه الفئة من المتكرشين الأذلاء، والمنتظرين الجبناء الذين يعلقون على صدورهم أيقونات الثورية والفداء.

اقـــــــرأ فاتحـــــــة المـــــــوت
وادخـــــل ســـــرداب التـــــاريخ
أفـــــــتش عـــــــن رجـــــــل
يـــــدعى المعتصـــــم الثـــــائر
عـــن رجـــل يحـــرق وجـــه الغـــادر...

***

... وأجـــدف فـــوق المـــوج.. أجـــدف
أرنـــو لا أجـــد ســـوى معتصـــمي العـــاهر
الـــراقص فـــوق الأحبـــال الفـــاجر...

***

... أيـن المعتصـم وأيـن الصـوت الهـادر
أيـــن الســـيف المســـلول البـــاتر
لا أجـــد ســـوى رجـــل منـــتفخ الـــبطن
ذليـــــــــــل الوجـــــــــــه
طويـــــــــــل فـــــــــــارع
وآخـــر يـــدعى رجـــل البـــرد الثـــوري
وثالث صاحب آخر نظريات العهر مقامر

وبعد أن ييأس الشاعر من العثور على المعتصم الحقيقي، ينطلق مفتشاً عن غيره من أبطال التاريخ:

أيـــن الفـــاتح؟ أيـــن القاســـم
أيـــن الرجـــل الشـــهم القـــادم
أيـــن قتيبـــة؟ أيـــن هبيـــرة؟
أيـــــــن العاصـــــــم؟

وأخيراً يعود الشاعر من رحلته الفاشلة عبر التاريخ، ليقبع حزيناً أمام سردابه، منتظراً قدوم المارد:

أنتظـــــر الفـــــاروق العائـــــد
مـــن أعمـــاق الـــدهر البائـــد
انتظـــــر صـــــلاح الـــــدين
البطـــــل الشـــــهم الماجـــــد

وقد حققت قصائد الزواتي بالدلالات المكانية المفعمة بالإيحاءات الشعرية المتنوعة، فالقدس، ويافا، وحيفا، والرملة، واللد، وغزة، وجنين، وزواتا، ويالو، وبيت فوريك، وكفر قاسم، ودير ياسين، وغيرها من مدن فلسطين وقراها، والقاهرة، وبيروت، وسيناء، وبحر البقر، وتل الزعتر، والدامور، وغيرها من مدن الوطن العربي، وواشنطن، وروما، وطهران، وغيرها من المدن العالمية، تتردد كثيراً في شعر الزواتي، وربما تتردد الدلالة المكانية الواحدة في القصيدة عدة مرات، ولكنها في جميع الحالات تبدو مشحونة بالصور الفنية، والرموز الشفافة، المتوائمة مع روح القصيدة وأساسها الموضوعي.

لجأ حلمي الزواتي إلى الوطن العربي فوجده مسكوناً بالرعب مشحوناً بالتآمر على قضيته وأبناء شعبه، تزكم فيه رائحة الخيانة الأنوف، وتمتزج فيه أحلام البسطاء من أبناء وطنه بدمائهم. فلم يجد – كغيره من شعراء المقاومة الذين سبقوه إلى المنافي– أسلوباً غير الانفجار للتعبير عن سخطه، وعن رغبته في البقاء، وتشبثه بالحياة، وإصراره على إعادة التماسك للجسد الفلسطيني الذي لا يراد له أن يتماسك.

وكانـــت دمـــائي تغطـــي الطريـــق
مـــن الشـــرق حتـــى المحـــيط
أعـــدوا الحشـــود وصـــفوا الجنـــود
وشـــــــــقوا ضـــــــــلوعي
وأعلـــوا مشـــانق عنـــد الحـــدود
حـــــزين أنـــــا يـــــا دمـــــائي
لمـــــاذا تضـــــيئين درب الجنـــــاة
لماذا تكونين شمعاً يذوب ليحيا الطغاة؟

لمـــــــاذا؟ لمـــــــاذا؟ لمـــــــاذا؟...

***

توســـــــــــــدت صـــــــــــــدرك

ألغيـــــت كـــــل مواعيـــــد قتلـــــي

وأبحـــرت فـــي مركـــب لا يضـــاء

وفوجئـــت بالليـــل يـــأتي ســـريعاً

وبـــــالمخبرين الغـــــلاظ الوجـــــوه

يشـــــــــــــقون دربـــــــــــــي

يشـــــدون زنـــــدي بـــــدون حيـــــاء

لقد وجد الشاعر شعبه يسير في دهليز طويل مرعب، يمتد من المحيط الخامل إلى الخليج الساكن، فكان لزاماً عليه أن يحمل قنديله ليفتش عن بقعة غير ملوثة بالدم الفسطيني، وخاصة بعد أن سقط آخر أزار عن آخر عورة عربية، وبعد أن انحسرت جميع الأقنعة التي كانت تخفي أقبح القسمات.

لقد امتدت معاناة الشاعر وأبناء وطنه أكثر مما ينبغي، ولكن هذه المعاناة لم تزدهم إلا تعلقاً بوطنهم وهياماً به، ورفضا لاستمرار الحياة في المنافي:

ثلاثـــــــــــون عامـــــــــــاً

وشـيخ القبيلـة عبـر جراحـي يسـافر

ثلاثون عاماً من القمع والقهر تحت

ضـــــــــــلوعي تهـــــــــــاجر

ثلاثـون عامـاً أفـتش عـن مـوطن

يحتـــــــــــــــــــــــــــويني

ثلاثـون عامـاً وصـدري شـباك نـار

ومـا كـف قلبـي عـن العشـق يومـاً

ومـــا كـــف يومـــاً عـــن الانتحـــار

ومـــا كـــان يومـــاً يحـــب المنـــافي

ولا الانتظـــــــــــــــــــــــــار

والقارىء لشعر الزواتي لا يلبث أن يكتشف أنه صوت يشتعل بالثورة، ويتوهج بالغضب، وكيف لا يكون كذلك وقد عصفت به رياح الغدر والقهر، فقذفت به خارج حدود وطنه، وحرمته من العيش في مرابع صباه، وحولته إلى لاجىء ليس له من هم إلا العزف على أوتار الغربة والمعاناة.

لقد أصبحت فلسطين بالنسبة للزواتي جرحه العميق الذي لا يندمل، وفي الوقت ذاته ضماده الذي يحاول أن يحمي به هذا الجرح من جراثيم الضياع والمهادنة والاستسلام.

وهكذا تحولت فلسطين إلى صليب ضخم يحمله الزواتي على عاتقه منذ أن ولدت على شفتيه أول آهة مقصدة. وليس هذا وحسب، فقد غدت فلسطين حبيبة الزواتي الأولى وعشقه الأوحد، وحلمه المطارد، وأمله العظيم.

ولكي تبقى تلك الجذوة متقدة متأججة فإن الشاعر يوظف كل شيء في سبيلها، فالسيف رمز القوة القديمة، والقدوم، والمنشار، والمنجل، والمذراة، وغير ذلك من الأدوات التي يستخدمها فلاحو فلسطين وعمالها وحرفيوها لا بد أن تتحول كلها إلى أسلحة، تقطع رقاب الأعداء، وتهشم رؤوسهم، وتنشر أيديهم الملطخة بدماء الأبرياء، وتحصد أحلامهم العنصرية المشوهة، وتذروا آمالهم في التحكم والسيطرة.

ولما كانت الكلمة عند شعراء المقاومة لعبة دموية تغري صاحبها بغرس أصابعه في الجمر بلذة متناهية، ويغمس قلمه بمداد دمائه فإن حلمي الزواتي لم يتردد لحظة في المشاركة بهذه اللعبة الدموية، التي كلفته وكلفت غيره من شعراء المقاومة الكثير الكثير..

لعينيـــك وحـــدك أبـــدأ هـــذا الرحيـــل
ولســـــــت ســـــــواك أغنـــــــي
وصـــــــــــلت أخيـــــــــــراً
جثـــــــــــــــــــــــــــوت
غفـــــــوت علـــــــى ركبتيـــــــك
حلمـــــــــــــت كثيـــــــــــراً
أعـــــدت صـــــياغة هـــــذا الوجـــــود
وأنشـــــدت شـــــعرا عـــــن الأرض
عـــــــن موســـــــم البرتقـــــــال

عـــن الحـــب والعشـــق والعنفـــوان
ومـــــــا كنـــــــت وحـــــــدي
ومـــــــا كنـــــــت أعلـــــــم
أن المسـافة مـا بـين يافـا ومـدخل جرحـي
تسـاوي العلاقـة بـين النجـوم وشطآن بحـري
ومـا كنـت أعـرف أن السـياط التـي ألهبتنـي
التـــــــــــي مزقتنـــــــــــي
تحـــاول تدشـــين شـــعري ومـــا دجنتنـــي
وحـــين ترجلـــت عـــن صـــهوة الجـــرح
عـــــــن قمـــــــة الـــــــرمح
كانـــــت يـــــداك تعيـــــد الحيـــــاة
وتلغـــــي جميـــــع مواعيـــــد قتلـــــي

بعد هذه السباحة الطويلة مع السمات الدلالية في شعر حلمي الزواتي، ملاحظ أن شاعرنا قد تمكن من التعبير باقتدار كامل عن الذات الفلسطينية، التي يعد هو نفسه نموذجاً بشريا صادقاً لها. وقد استطاع من خلال هذا التعبير أن يكشف عن خبايا الحياة الفلسطينية اليومية المعقدة، ممثلة في لحظة من لحظات الرؤية الشعرية التي يقتنصها الشاعر، ويتمكن من خلالها من التعرف على أسرار الحياة والوجود الحقيقي الذي يغص بالثنائيات المتناقضة، والأشياء المتلائمة التي لا تتناهى.

وانطلاقاً من هذا المفهوم لوظيفة الشاعر، نجد أن الزواتي لم يثر ثورة مطلقة على دستور الشعر الموروث، حيث ظل مشدوداً إليه سواء من حيث الإيقاع الموسيقي، أو البناء النفسي، أو التشكيل البنائي. ويبدو ذلك بشكل صارخ في العديد من تجاربه الشعرية التي فرض مضمونها عليه أن تظهر إلى حيز الوجود، وهي متدثرة بثوب من ثياب العروض الخليلي المعروفة.

ولعل ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على إدارك سليم لطبيعة التجربة الشعرية، التي يفرض مضمونها على الشاعر شكلها الفني الذي تتجلى فيه على الناس.

لقد أدرك الزواتي أن الحداثة في الشعر لا تتطلب رفضاً مطلقاً للتقاليد الشعرية الموروثة، كما أدرك أيضاً بأنها ليست البديل الأوحد لتلك التقاليد ولكنها مجرد تغيير يطرأ على نظرة الشاعر الحديث للأشياء، وانعكس على تعبيره في صور فنية جديدة غير مألوفة، وهي بالتأكيد ليست آخر ما يمكن أن يظهر في مفهوم الشعر والحداثة.

بعبارة أخرى نجد أن الحداثة في مفهوم الزواتي إنما ينبع من تجارب وأحاسيس نابعة من عقلية حديثة تبدلت نظرتها للأشياء. فخرجت على الناس في أطر وتعبيرات جديدة ملائمة لروح العصر.

ملاحظة:

يرجى الاطلاع على موضوع (السمات الدلالية في شعر حلمي الزواتي) في كتاب الدكتور رجا سمرين (تحت المجهر) صفحة 93-153.

أزمة النقد العربي المعاصر

هذا البحث نشر في مجلة (الكلية الوطنية)، في عددها الثاني الصادر بعمّان/المملكة الأردنية الهاشمية لسنة 1992، صفحة 12. ونشر في جريدة الهدف الكويتية مارس 1983م.

من الأمور التي لا تخفى على من يتابع الحركة الأدبية في العالم العربي بعامة، والحركة النقدية التي تواكبها بخاصة، أن الحركة النقدية تعيش أزمة حادة، بل لا نغالي إذا نحن زعمنا أنها تعيش محنة تفوق تلك التي تعيشها حركة الإبداع الأدبي.

ولكي نتعرف أسباب المحنة التي يعيشها النقد الأدبي علينا أن ندرك أن هذه المحنة ليست إلا مظهراً من مظاهر المحنة العامة التي تعيشها الأمة العربية.

ومن البدهيات التي يعرفها جمهور المثقفين أن الأدب – على تعدد أجناسه وتنوعها – ليس إلا مرآة تعكس حياة الأمة في جميع الحالات.. في حالة القوة والازدهار، وفي حالة الضعف والانحدار..

ولست أعتقد أن في الأمة العربية الآن من يكابر أو يغالط نفسه ويدعي أن أمته تعيش أحسن حالاتها.. إننا في الواقع نعيش الزمن العربي الرديء. وفي هذه الحالة، ما الذي يمكن أن ننتظره من نتاج أدبي أو نقد أدبي يصدر عن أدباء ونقاد محاصرين بإهمال الأنظمة، وأجهزة الرقابة، وعدم الاهتمام بنشر نتاجه، أو العناية بتسويقه في حالة نشره، وتجاهل وسائل الإعلام – البصرية والمسموعة والمقروءة – للحركة الثقافية، وعدم إيلائها ما تستحقه من الرعاية والاهتمام؟!

وإذا أضفنا إلى ذلك كله اضطرار المبدعين للجري وراءَ لقمة العيش، ومحاربتهم بالتضييق عليهم عند نقدهم للتخلف والاعوجاج، وإذا عرفنا أن رسالة النقد الأدبي أشد بكثير من تلك التي تعيشها الحركة الأدبية بوجه عام.

ومن الأسباب التي تعمل على استفحال هذه المحنة واستشرائها اشتغال كثير من المتطفلين وهم غير مؤهلين للقيام بهذه المهمة الشاقة.

إن هنالك شروطاً ومواصفات ينبغي أن تتوافر في الناقد – لا تقل إن لم تكن تزيد – عن تلك التي يجب أن تتوافر في الأديب المبدع. وفي مقدمة هذه الشروط: تمكن الناقد من اللغة وعلومها، وسعة ثقافته، وإلمامه الجيد بالمذاهب النقدية المتنوعة، واتسامه بالنزاهة والعدالة، وربما كان انتسابه إلى فئة من فئات المبدعين أحد الشروط التي ينبغي أن تتوافر فيه؛ لأن الناقد الروائي أقدر على نقد القصة والرواية من الناقد الذي لا يمارس كتابة القصة أو الرواية. كما أن الناقد الشاعر أقدر من ذلك الناقد الذي لم يعان مشقة الإبداع الشعري.. وهكذا.

وينبغي أن يتسم الناقد بالحس المرهف إلى جانب إلمامه بأصول النقد وقواعده والعناصر الفنية التي يتألف منها العمل الأدبي. وإذا كان النقاد عاجزين عن ممارسة عملية التحليل والنقد فلا بد أن يكون هنالك خطأ ما في الطريقة التي درس فيها هؤلاء الأدب منذ البداية.

ولعل هناك ما يشبه الإجماع على أن طرق تدريس الأدب في بعض جامعات العالم العربي متخلفة؛ وأنها في أمس الحاجة إلى إعادة النظر فيها لتنقيتها من الشوائب والمعوقات. ولعل في مضاعفة الاهتمام بدراسة النصوص الأدبية ورياضة الطلاب على تحليلها ونقدها وتذوقها ليتمكنوا من معرفة العناصر الفنية التي يتألف منها العمل الأدبي والعلاقة التي تربط بين هذه العناصر بصورة تجعل منها كلاً يتمتع بإيحاءات خاصة تولد في القراء الفهم والتذوق والمشاركة علاجاً لذلك.

وأزمة النقد بالإضافة إلى ما تقدم أزمة أخلاقية أولاً وأزمة نشر ثانياً، ولا شك أن معظم ما تعانيه أمتنا من أزمات إنما يرجع في حقيقته إلى الأزمة الأخلاقية، فالناقد العربي المعاصر جزء من هذه الأزمة التي نسيت أو تناست ما ينبغي أن تتمسك به من عقائد ومبادىء ومثل، وأباحت لنفسها بوعي أو بغير وعي أن تتحلل من مسؤولياتها فراحت تنشد من أعدائها الذين صنعوا مآسيها ونكباتها أن يحلوا لها مشكلاتها ويخلصوها من أزماتها.

فكيف نستغرب والحالة كذلك أن يخرج ناقد على الأخلاق فيلجأ إلى السب والتجريح بدلاً من النقد والتحليل، أو إلى المجاملة والنفاق والمهادنة، بدلاً من الحياد والصراحة والموضوعية، أو يجهد نفسه

في الكشف عن المثالب والسلبيات، ويتعامى متعمداً عن كل ما يمكن أن يشتمل عليه العمل الأدبي من مزايا وإيجابيات؟!

أما عن أزمة النشر فحدث عنها ولا حرج.. إن دور النشر ترفض نشر أي كتاب إذا لم يحصل أصحابها على نصيب الأسد من عائداته؛ أما المؤلف فلا يجني من ثمار خلقه وإبداعه سوى الفتات.

والناقد المنصف ينبغي أن يكون موضوعياً والمراد بالموضوعية هنا هو أن يجعل الناقد من العمل الأدبي موضوعاً لنقده، أي لا يجعل من شخص صاحب العمل الأدبي أو جنسه أو لونه أو وطنه أو مذهبه موضوعاً للنقد.

وباختصار، فإن الناقد مطالب بألا يقف من النص ومبدعه موقفاً عدائياً أو منحازاً لأي سبب من الأسباب التي لا علاقة لها بالنص ذاته. وعليه كذلك ألا يذهب في التعاطف مع النص وصاحبه إلى مدى بعيد.

وربما كان قدر من التعاطف مطلوباً عند تصدي الناقد لعمل أدبي أنتجه أديب ناشىء انطلاقاً من ضرورة تشجيع الناشئين وحثهم على المزيد من الإجادة ومواصلة الخلق والإبداع، شريطة ألا يتجاوز التعاطف حده المعقول حتى لا يتطرق إلى نفس الأديب الناشىء شيء من الغرور، لأن هذا اللون من التعاطف لا يقل في خطورته عن النقد الهدام الذي يصيب الناشىء بالإحباط.

ومن البدهيات أن الذوق الشخصي – وحده – لا يكفي للحكم على الأعمال الأدبية، وهذا يذكرني بما قاله أحد القدماء للناقد القديم خلف بن حيان: "إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك." فقال له خلف: "إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته فقال لك الصيرفي أنه رديء، هل ينفعك استحسانك له؟!"

ومعنى هذا أن هنالك معايير يميز بها الناقد جيد النصوص الأدبية من رديئها، وصحيحها من فاسدها.

أما الاعتماد على الذوق الشخصي وحده فإنه يؤدي إلى تردي الناقد في هوة النقد الانطباعي، أو التأثري. وهو مذهب نقدي عرفته أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، واستمر سائداً فيها حتى عام 1940م.

وأصحاب هذا المذهب يزعمون أن من حق الناقد أن يسجل انطباعاته على الحالة التي تبدو له مباشرة بعد قراءته الأولى للنص الأدبي، دون أن يكون مضطراً إلى أي شرح أو تعليل. وهم يدعون أن مجرد رجوع الناقد إلى إحساسه الذاتي كاف.

ولا يقف دعاة هذا المذهب النقدي عند هذا الحد، بل نراهم ينادون بتجاوز القواعد المنهجية التي تعوق – في زعمهم – عملية النقد الانطباعي، بل إنهم يرون أن النقد وهو في أشد حالاته التزاماً بالموضوعية المنهجية ليس إلا انعكاساً لذات الناقد وذوقه الشخصي.

وعندي أن مزج الموضوعية بقدر معقول من التأثرية قد يكون مفيداً لأنه يؤدي إلى التخفيف من جفاف المنهجية وغلوائها.

والذوق الشخصي في هذه الحالة ينبغي أن يكون كالملح في الطعام، الإكثار منه يفسد الطبخة، ونسيانه كلية يجعلها بلا مذاق مقبول.

أما كيف نرتقي بالحركة النقدية في الأردن وفي سائر أقطار الوطن العربي، فهذا جزء لا يتجزأ من الارتقاء بالحركة الثقافية والأدبية والعلمية فيها. فالنقد كغيره من الفنون لا يزدهر إلا في ظلال الإيمان الفعلي بالمبادىء والمثل والقيم، وفي مقدمة ذلك كله الحرية وتوفير المناخ الملائم الذي يمكن الادباء والنقاد من الإبداع وجني ثمرات إبداعاتهم. وذلك كله كما نعرف مسؤولية الجميع، وأعتقد أننا في الأردن قد خطونا أولى خطواتنا في هذا المجال.

ومما لا ينبغي إغفاله الحرص على تعليم الجمهور وتثقيفه، وعناية وسائل الإعلام، وتدريس الأدب على أسس منهجية جديدة تؤدي إلى الاهتمام بما يحيط بها من ظروف وملابسات قد تمت إليها بصلة من قريب أو بعيد.

بيني وبين الشعراء

نشر هذا البحث في مجلة (كلية التربية الوطنية) عمان على حلقتين بعنوان(بيني وبين الشعراء) في العددين: (3) و (4) على التوالي بتاريخ شباط 1993، حزيران 1993م.

ترددت كثيراً قبل البدء في كتابة هذا الموضوع، إذ لم يغب عن ذهني أن الناس لم يعودوا يحفلون كثيراً بالقضايا الخاصة، وأن جلّ اهتمامهم إنما يوجه للعناية بالقضايا العامة التي تمس حياتهم وتتأثر بها أو تؤثر فيها.

وعلى الرغم من ذلك التردد فقد حملتني رغبتي الجامحة في تسجيل هذا الموضوع، إلى الكتابة فيه لعدة أسباب:

أولها: أنه لا يمكن فصل الخاص عن العام، وبخاصة في مسائل الإبداع الأدبي، فمهما كانت درجة خصوصية التجربة الأدبية لدى الأديب، فإنها لا تخلو من الصلة – قريبة كانت أو بعيدة– بالقضايا العامة على اختلاف دوائرها الاجتماعية والوطنية والقومية والإنسانية.

ثانيها: أن هذا اللون من ألوان الإبداع فن قديم أثرى الأدب العربي بكثير من الإبداع المتنوع على مر العصور.

وقد كان أدب الترسل شائعاً بين أعلام النثر والكتابة في العصور الزاهرة للأدب العربي التي تمتد من القرن الثالث الهجري إلى بداية عصر الجمود والانحسار، وحسبنا أن نشير إلى رائعة أبي العلاء المعري الموسومة "برسالة الغفران" والتي كانت رداً على رسالة الأديب الشاعر علي بن القارح، وإلى رسالة "التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي التي وجهها إلى صديقه أبي بكر بن حزم، وإلى رسائل الجاحظ إلى الفتح بن خاقان وابن أبي دؤاد ومحمد بن عبد الملك بن الزيات وأبي الفرج بن نجاح الكاتب وغيرهم.

ولم يكن الشعراء بمعزل عن هذا اللون من ألوان الأدب الذي تولده الصلات الخاصة بين الشعراء بغض النظر عن كنه هذه الصلة وطبيعتها، سواء كانت تلقائية أو موجهة، وإنني أزعم أن شعر النقائض في العصر الأموي لم يكن إلا لوناً من هذه الألوان وإن كانت الخصومة والكراهية والعصبية التي أشعلتها وأجج نيرانها الأمويون هي التي كانت خلف هذا العدد الهائل من قصائد الهجاء التي أبدعتها قرائح ثمانين شاعراً أو أكثر.

وفي عصر النهضة الحديثة كثرت القصائد التي يوجهها الشعراء إلى بعضهم كثرة ملحوظة، كما كثر نظم القصائد المشتركة التي أسهم في نظمها شاعران أو أكثر.

وحسبنا أن ننوه بتلك القصائد المتبادلة بين أمير الشعراء أحمد شوقي وشاعر القطرين مطران خليل مطران، وبين كل واحد من هذين الشاعرين وشاعر النيل حافظ إبراهيم.

ثالثها: أن الناس مفطورون على الرغبة في تعرف الأسرار والاطلاع على الخصوصيات والدخائل.

ولعل الكشف عن الصلات الخاصة بين الشعراء ما يشبع فضول القراء وحب الاستطلاع الذي جبلوا عليه، كما أن فيه ما يعين على دراسة نتاج الشعراء وتفهمه حين يتعرض الباحثون لنتاجهم بالدراسة والتقويم.

لقد قدر لي عبر مسيرتي الشعرية الطويلة التي نيفت على الأربعين عاماً أن أتصل بكثير من شعراء العالم العربي، فعرفت العديد منهم عن قرب، وتوثقت معرفتي ببعضهم حتى بلغت درجة الصداقة الوطيدة والأخوة المتينة.

في مصر– وفي أثناء الفترة التي كنت فيها أطلب العلم– عرفت معظم الشعراء الذين تألقوا في سماء الشعر العربي في عقدي الخمسينات والستينات، وما زالت الصلة قائمة بيني وبين معظم الذين مازالوا على قيد الحياة منهم.

كما أن حياتي العملية التي قضيتها بين الأردن والسعودية والكويت قد أتاحت لي فرصة معرفة عدد كبير من شعراء العالم العربي الذين عملوا معي في هذه الأقطار.

وقد توثقت صلتي بعدد لا يستهان به منهم، وكان في مقدمتهم الشاعر السوري المرحوم علي دُمَّر، وهو من شعراء حماة، وقد زاملته في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر منذ عام 1951م، وتطورت هذه الزمالة حتى صارت صداقة وطيدة لم يحل عراها إلا انتقال علي إلى جوار ربه في السعودية عام 1985م.

التقيت هذا الشاعر لأول مرة في أمسية شعرية أقيمت في الكلية سنة 1951م وبعد أن فرغنا من إلقاء قصائدنا التي شاركنا بها في تلك الأمسية تعارفنا وأثنى كل منا على صاحبه، ومنذ ذلك الحين أصبحنا وكأننا توأمان سياميان حيث لم تنقطع الصلة بيننا على الرغم من هموم الحياة وشواغلها ومآسيها.

كانت أول قصيدة نظمتها من وحي هذه العلاقة التي ربطت بيني وبين علي دمر هي قصيدة "هم على وجهك"، وكانت من وحي قراءتي لديوانه الأول "رعشات" فقد احتوى ديوانه هذا على عدد من القصائد التي يصور فيها الشاعر تجربة حب عاثر، وقد بكى فيها حباً ضائعاً، وشكا حبيباً متكبراً غادراً خان عهوده، وأخلف وعوده، وقد نظمت هذه القصيدة في 1954/4/13، ومضمون القصيدة يدور حول تعزية الشاعر عن فشله في هذه التجربة الغرامية الفاشلة وقد بدأتها بقولي:

هم على وجهك يا صنو الشقاء ... واضطرب في مهمة العمر الجديب
وارث أياماً تقضت في هناء ... واذرف الدمع على الأمس الحبيب
قد ظننت الدهر يصفو للأديب ... خانك الوهم وغرتك الظنون
فاستفق من ذلك الحلم الغريب ... واغترف ما شئت من نبع الشجون

وقد نعيت على حبيبه الغادر صلفه وكبرياءه ومخالفة ظاهرة باطنة فقلت:

ذلك الحب الذي كنت به ... مستهاماً نسي اليوم العهود
ظالم جار على أحبابه ... غره الحسن فغالى في الصدود
وجهه كالبدر لكن نفسه ... مثل قاع أليم أو ليل الشتاء
يترك الخل يعاني يأسه ... إن بدا منه له يوما وفاء

وفي ختام القصيدة بينت لذلك الحبيب الغادر ما ينتظره من سوء المآل بعد أن يذوي حسنه الذي يدل به، ويفقد رواءه الذي يدعوه إلى الخيانة والغدر فقلت:

أيهـــا الجـــائر فـــي شـــرع الغـــرام ســـوف يـــذوي ذلـــك الحســـن البـــديع
ويظـــل الخبـــث فـــي الـــنفس مقـــام فتعـــاني ســـطوة الظلـــم الشـــنيع

وفي 1954/11/11 تم عقد قراني في القاهرة، وفي حفل بهيج ضم نخبة من الأصدقاء الأردنيين والفلسطينيين والمصريين والسوريين واللبنانيين فاجأني صديقي الشاعر علي دُمَّرْ بقصيدة هنأني فيها بعقد قراني وهي قصيدة قصصية تقع في ثلاثة وثلاثين بيتاً، وقد بدأها بهذه الأبيات التي تتسم بالظرف والطرافة فقال:

يـــا أيهـــا المحتفـــون شـــكرا تحيتـــي حلـــوة رطيبـــة
أقـــدم الشـــكر عـــن "رجـــاء" "عريســـنا" شـــاعر العروبـــة
لأنـــه الآن فـــي انشـــغال بحـــادث ظـــن لـــن يصـــيبه
يحفـــر بئـــراً لـــه عميقـــاً يلقـــي بـــه عـــاجلاً كروبـــه

ثم يمضي الشاعر في قصيدته واصفاً قصد صديقه رجا مع العزوبة ومعاناته من جفاف الحياة الخالية من الحب إلى أن التقى بالفتاة التي سلبت لبه وبدلت حياته فقال:

كـــان أخونـــا يهـــيم يومـــاً فـــي مشـــية حلـــوة طروبـــة
إذا بشـــقراء ذات حســـن ترميـــه بـــالنظرة المذيبـــة
كأنهـــا الـــورد فـــي نـــداه خجولـــة حلـــوة أديبـــة
تاهـــت وســـارت بكبريـــاء كـــالحلم فـــي الغفـــوة الحبيبـــة
كـــان أخونـــا يـــرى دروبـــه فلـــم يعـــد مبصـــراً دروبـــه

وبعد أن صور الشاعر ما فعلته نظرة هذه الحسناء في صديقه الشاعر ختمها بقوله:

وهكـــذا قـــد غـــدا محبـــا صـــباحه مشـــبه غروبـــه
ثـــم تـــولى إلـــى أبيهـــا وبعـــدها تمـــت الخطوبـــة
واليـــوم أمســـت لـــه عروســـا ولـــم تعـــد عنـــده خطيبـــة

فهنئـــــوه علـــــى منـــــاه بقبلـــة فخمـــة مهيبـــة

وتمضي الأيام ونتخرج معاً من كلية اللغة العربية ويتوجه "علي" للعمل في المملكة العربية السعودية، وأعود أنا إلى وطني الأردن، وأصدر في سنة 1960 ديواني الأول "الضائعون"، وأهدي إلى صديقي علي نسخة من هذا الديوان فيوجه إلي هذه قصيدة بعنوان "النازحون" يقول فيها:

تحـــت قـــر الشـــتا وحـــر الصـــيف قـــد جرعتمـــو كـــؤوس الحتـــوف
فـــي الليـــالي ومـــا أمـــر الليـــالي نائحـــات بـــدمعها المـــذروف
نادبـــات أعمـــاركم ومنـــاكم عاصـــفات بكـــل ريـــح عصـــوف
ناســـفات خيـــامكم وبيـــنكم هاتكـــات أســـمال تلـــك الســـجوف

وبعد أن يسترسل الشاعر في وصف ما يكابده اللاجئون من أهوال ينتقل إلى تصوير رفض الفلسطينيين لواقعهم المؤلم هذا متمثلاً في قول شاعرهم صاحب ديوان "الضائعون" قائلاً:

زأر الشـــاعر الهيـــف كفـــاكم لـــيس شـــعبي بيـــائس أو ضـــعيف
الشـــريدون والطريـــدون يومـــاً ســـيهزون عـــالم التزييـــف

وقد صور الشاعر في هذه القصيدة حتمية انتصار هؤلاء المشردين وعودتهم إلى بلادهم:

هـــؤلاء الضـــعاف يومـــاً ســـيبدو منهمـــو كـــل مـــارد عنيـــف
إن يكونـــوا قـــد شـــردوا فـــي شـــتاء ســـيعودون عنـــد عـــود الخريـــف
لـــن يضـــيعوا فالـــدهر يخجـــل إمـــا كلفـــوه بمثـــل ذا تكليـــف

ثم يختم قصيدته هذه والتي نشرها فيما بعد في ديوانه الخامس "غيبوبة الحب" بقوله:

يـــا أخـــي يـــا رجـــا بشـــعرك نفســـي تتملـــى أرجـــاء كـــون مخيـــف
فيـــه يبـــدو للضـــائعين العرايـــا عـــالم مثـــل هيكـــل مخســـوف
وحطـــام الأخـــلاق فـــي عصـــرنا البـــا غـــي شـــظايا ضـــميره المنســـوف
غيـــر أن الرجـــاء يبـــدو مطـــلاً مثـــل إشـــعاع كوكـــب مكســـوف

وفي عام 1959 أصدر علي دمر ملحمته الشعرية "المجهولة" وبعد قراءتي هذه الملحمة استوحيت قصيدة وجهتها إلى تلك الحبيبة المثالية التي ليس لها من وجود إلا في خيال صديقي الشاعر المثالي الذي صورها في ملحمته التي تتألف من اثنين وعشرين نشيداً، وقد بدأتها بقولي:

حنـــي عليـــه وبعـــد اليـــأس عوديـــه فـــي فالوجـــد بنشـــره والكبـــت يطويـــه
مســـهد قلـــق يطـــوي الظـــلام أســـى وفـــوق أوراقـــه تهمـــي مآقيـــه
يستفســـر الغيـــب عـــن مجهولـــة خفيـــت عـــن ناظريـــه وشـــعت فـــي خوافيـــه

وبعد أن أسهبت في بيان الصفات المثالية التي تتصف بها تلك المجهولة كما يراها الشاعر خاطبته بقولي:

"علـــي" يـــا زفـــرة فـــي الليـــل هائمـــة تجـــوس جـــوف الـــدجى حـــرى فتكويـــه
مـــن التـــي أنـــت مخمـــور بفرقتهـــا؟ أتســـتحق فتـــاة مـــا تقاســـيه؟!
أتســـتحق فتـــاة مـــا تكابـــده مـــن لوعـــة الشـــوق باديـــه وخافيـــه
لـــو كنـــت أعرفهـــا يومـــاً لقلـــت لهـــا حنـــي عليـــه وبعـــد اليـــأس عوديـــه

وإلى حلقة أخرى من هذا البحث في عدد قادم إن شاء الله...

بعد سبعة أعوام من العمل في الأردن، أبرمت عقداً مع البعثة السعودية للعمل في مدارس المملكة العربية السعودية حيث أمضيت فيها ثلاثة أعوام، وكان صديقي الشاعر السوري علي دمر قد سبقني إلى هناك منذ تخرجه، ولم يكد يسمع بوجودي في الرياض حتى بعث إلى برسالة شعرية يدعوني فيها لزيارته في منزله بالهفوف.

وقد صور في رسالته الشعرية أشواقه الصادقة، وذكرني بأيامنا الجميلة التي امضيناها معاً في ربوع مصر، وقد بدأ رسالته بقوله:

أقبل إلى منزلي كالموسم العطر وأنزل كغيث على الصحراء منهمر
شوقي إليك "رجا" لا زال مشتعلاً تذكى لظاه أفانين من الصور
قد صورت حقبة من عمر صحبتنا في أرض مصر وفي أيامها الغرر
أيام نلهو وكأس الصفو مترعة وليس في صفوها شيء من الكدر

وقد أنهى قصيدته بتصوير ألمه لانقضاء تلك الأيام، وحثني على قبول دعوته من أجل إحياء تلك الذكريات قائلاً:

اطفىء لظى الشوق يا خلي بمقدمكم كي نستعيد ليالي الأنس والسمر

وقد أجبته على رسالته هذه بقصيدة مماثلة صورت فيها وقع رسالته في نفسي، وما أثارت فيها من ذكريات عذبة لا تنسى فقلت:

كصيب من هتون المزن منهمر وافى المشوقين من بدو ومن حضر
أحيا به الله ميت الأرض فانتفضت عن كل غض من الأزهار والثمر
أو مثل صب براه الشوق عاد إلى حبيبه بعد طول الصد والسهر
وافت قصيدتك العصماء مشعلة في الحنين إلى ما مر من عمري
ذكرتني يا "علي" خير ما شهدت عيناي في مصر من لهو ومن سمر

وقد أنهيت قصيدتي بالمقارنة بين تلك الأيام الجميلة التي قضيناها في مصر وبين ما أصبحنا نعاني منه في ديار الغربة فقلت:

لله تلك الليالي إذ تطالعنا بكل عذب من الأحلام والصور

أيـــام كنـــا وكـــان الصـــفو ثالثنـــا "ولـيس فـي صـفونا شـيء مـن الكـدر"
واليـوم لـيس سـوى الـذكرى ولوعتهـا ولفحـة الحـزن والتحـديق فـي الصـور
ألا تـرى كيـف أنـا اليـوم فـي زمـن عـن كـل حلـو مـن الأحـلام منبتـر؟!

وقد لبيت دعوة صديقي، ومكثت في ضيافته أسبوعاً كاملاً استرجعنا فيه أعذب الذكريات.

وتمضي الأيام بحلوها ومرها، وتضطرني ظروف الحياة إلى ترك عملي في السعودية والتعاقد مع وزارة التربية في الكويت التي عملت في مدارسها ومعاهدها وكلياتها الجامعية ثلاثة وعشرين عاماً متواصلة عرفت في خلالها عددا كبيراً من شعرائها وشعراء العالم العربي الذين وفدوا إليها للعمل فيها.

في عام 1981 نقلت من توجيه اللغة العربية في الوزارة للعمل في معهد التربية للمعلمين، وذلك المعهد الذي لم يلبث أن تحول إلى كلية للتربية، وقد توثقت علاقتي بشاعر مصري كان يعمل في المعهد نفسه هو الدكتور صلاح عيد الذي كان ينافسني في نظم القصائد التي كنا نصوغها في المناسبات السعيدة التي كان يقيمها أعضاء هيئة التدريس في قسم اللغة العربية للزملاء.

وكان زواج ولدي الأكبر نزار من المناسبات السعيدة التي أوجبت علي إقامة وليمة لزملائي في القسم، وقد بادر الدكتور صلاح عيد بنظم قصيدة جيمية رقيقة في هذه المناسبة بدأها بقوله:

اليـوم أسـعدنا بدعوتـه "رجـا" لا خيب الرحمن فيه لنا رجا
وعـد الرجـال وفـى بـه ووفـاؤه كـالأقحوان إذا شـذاه تأرجـا

وبعد أن أسهب الشاعر في وصف كرم صاحب الوليمة أنهى قصيدته بهذه الأبيات التي تنم عن روح فكهة فقال:

فليبـق رب لـه "نـزار" موفقـاً أيامـه ملئـت بمـا قـد أبهجـا
فهو الذي اختار الزواج لنفسه وعلـى أتـم لـوعي حـين تزوجـا
وليبـق جـود أبيـه مثـل قصـيده كالصبح في الأفق السني تبلجا

ويصدر ديواني الثاني عام 1985، وأبادر كالعادة بإقامة وليمة للزملاء بهذه المناسبة، فينبري الدكتور صلاح عيد بنظم جيمية أخرى يلقيها في أثناء الحفل، فيقول في مطلعها:

الـــــذوق والحجـــــا همـــا همـــا "رجـــا"
يشـــــع جـــــوداً أو شـــــعراً مـــــدبجا
كالشـمس فـي الضـحى والبـــدر فـــي الـــدجى
والزهـــر فـــي الريـــا ض إن تأرجـــــــــا
امتـــــاز فـــــي كـــــلا الأمـــــرين منهجـــــا
ينشـــــط فيهمـــــا لا شـــــتكي الوجـــــا

وبعد أن يسترسل الشاعر في الإشادة بكرم صاحب الوليمة يعرج على وصف شاعريته قائلاً:

تـــــرى قصـــــيده ذاك المـــــــــــدججا
معنـــــاه فـــــارس للفـــــظ أســـــرجا
قـــــد رق مـــــدخلا وراق مخرجـــــــــا
أســـــتاذنا الـــــذي لا زال يرتجـــــــــى

وكانت تعتري صديقي هذا حالات من الاكتئاب النفسي التي تنم عن ضيقه بالعمل في الكويت، وتعبر عن ندمه على ترك العمل في الجزائر إثر تجربة مجهضة للعمل فيها مررت بها معه عام 1981، وكنت ألجأ إلى التسرية عنه عندما تعتريه مثل هذه الحالات. وقد وجه إلي في يوم من أيام عام 1985 أبياتاً ينكر علي فيها لومه على استمراره في تصوير ندمه على ترك العمل في الجزائر، يقول في هذه الأبيات:

إنـــي لمعـــذور بمـــا أنـــا واجـــد فعـــلام أنـــت علـــي فيـــه واجـــد
الحاضـــر الممتـــد فـــي الماضـــي لـــه وقـــع أعـــاني جمـــره وأكابـــد
لكـــن أراك تخفـــف الغلـــواء عنـــدي إذ تعـــارض وجهتـــي وتعانـــد
فعســـى تعيـــد تـــوازن الـــنفس الـــذي فقدتـــه ممـــا تبتلـــى وتشـــاهد

وقد حاولت فعلاً أن أعيد إلى صديقي توازنه النفسي بهذه الأبيات التي حاولت أن أقنعه فيها بأن الخير فيما اختاره الله:

كـــم ذا تعـــاني يـــا أخـــي وتكابـــد فـــإلى متـــى تشـــكو وعمـــرك واحـــد
هـــل يرجـــع النـــدم الممـــض مضـــيعاً؟ أم هـــل يغيـــر مـــا تـــرى وتشـــاهد؟!

الله ثـــم الله فـــي الـــنفس التـــي مـــا تـــأتلي تـــدع الرضـــا وتعانـــد
لا تبتـــئس فلقـــد تكـــون نجاتنـــا مـــن كـــل مـــا نخضـــى بمـــا هـــو ســـائد
ولقـــد يكـــون الشـــر فـــي الأمـــل الـــذي قـــد ضـــاع فـــي الـــزمن الـــذي هـــو بائـــد
فـــالخير فيمـــا اختـــاره الـــرحمن لا فـــي منصـــب يـــزداد منـــه العائـــد
أو فـــي جمـــال طبيعـــة خلابـــة ينســـيك روعتهـــا غلـــيظ فاســـد

ويبدو أن أبياتي هذه قد تركت في نفس صديقي أثراً طيباً، فقد طلع علينا في اليوم التالي بثلاثة أبيات يصور فيها الأثر الحسن الذي تركته أبياتي في نفسه، ولكنه لم ينس أن يشير فيها إلى ألمه بسبب عدم بقائه للعمل في الجزائر، فيقول في هذه الأبيات:

أوحـــى إلـــي "رجـــال" بآيـــات أحلـــى وأغلـــى مـــن بنيـــاتي
مـــاذا لـــو أنـــا بـــالجزائر عشـــنا فـــي روابيهـــا النـــديات؟!
وبهـــا قصـــائدنا ارتـــوت ونمـــت لأتـــت بآيـــات وآيـــات

وقد جمعتني والدكتور صلاح ثلاث جلسات من جلسات الامتحان في معهد التربية للمعلمين لمراقبة الطلاب، وقد استوحينا من محاولات الغش التي كان يلجأ إليها الطلاب ثلاث قصائد اشتركنا في نظمها، وقد بلغ التشابه بين أسلوبي كل من ناظمي النظم حداً يجعل من المستحيل على الناقد أن يتعرف على الأبيات التي نظمها كل منا. بل إنني لا أغالي إن قلت إن مرور الأيام قد جعل من العسير حتى على الشاعرين اللذين شاركا في نظم هذه القصائد التعرف على ما نظمه كل منهما في أبيات هذه القصائد.

لقد تلاحمت أبيات هذه الفصائد تلاحماً وفر لكل منها وحدة عضوية قد لا تتوافر لها أو أنها كانت من نظم شاعر واحد، وسأجترىء بإيراد أبيات من إحدى هذه القصائد، وهي القصيدة الثانية، وقد استوحيناها من محاولات الغش التي قام بها بعض الطلبة في امتحان تاريخ الأدب العربي، وقد قلنا منها:

إنمـــا الغـــشُّ فـــي الأدبْ هـــو مـــن قلـــةِ الأدبْ
فـــاترك الغـــشَّ يـــا فتـــى إنـــه منبـــعُ الكُـــرَبْ
والـــزمِ الحـــقَّ إنـــهُ خيـــرُ مُـــنْجٍ مـــن النَّـــوَبْ

إنمـــــا الغـــــشُّ آفـــــةٌ لـــم تُبْـــدِ شـــرَّها الحِقَـــبْ
تحـــرقُ الخلـــقَ كـــاللظى حينمـــا تحـــرقُ الحطـــبْ
لـــيس يرضـــى بـــه امـــروءٌ أحســـنَ الجِـــدَّ والطلـــبْ
إنمـــا الغـــشُّ سَـــقْطَةٌ توقـــعُ المـــرءَ فـــي العَطَـــبْ
إنـــه ســـاءَ مســـلكاً إنـــه شَـــرٌّ مُنْقَلَـــبْ
لا تحـــاولْ فإننـــا نرقُـــبُ الكـــلَّ عـــن كَثَـــبْ
لـــيس تجـــديكَ همســـةٌ والتفـــاتُ، ولا صَـــخَبْ
هـــل رأيـــتَ امـــرءا كبـــا أو هـــوى دونمـــا ســـببْ
أو رأيـــت امـــرءا ســـما وارتقـــى أرفـــعَ الرتـــبْ
دون ســـعيٍ وهمـــةٍ زانهـــا الجـــدُّ والتعـــبْ

وبعد إحالتي إلى التقاعد، وقبل مغادرتي أرض الكويت، أقام لي عدد من أصدقائي الشعراء حفل وداع ألقيت فيه قصيدة من وحي هذه المناسبة، وقد قلت في مطلعها:

أحلـــت إلـــى التقاعـــد غيـــر أنـــي ســـأبقى رغـــم تنحيتـــي أغنـــي
لحـــى الله امـــرءاً قـــد ظـــن يومـــاً بـــأن الســـعد مرهـــون بســـن
وأن تقاعـــد الإنســـان يعنـــي نهايتـــه، فـــلا يرجـــى لعـــون
فـــذاك لعمـــر عمـــري لـــيس إلا غبـــاء تصـــور أو محـــض مـــين

وقد ألقى خمسة من الشعراء قصائد بهذه المناسبة وهم: الشاعرتان مريم الصيفي وجوهرة سفاريني والشاعر المصري محمد يوسف والشاعران هلال الفارع وربحي محمود.

ومما قالته الشاعرة مريم الصيفي في قصيدتها:

رفيـــق الـــدرب يـــا ابـــنَ الانتصـــارِ
ســـليلَ الأكـــرمين أبـــا نـــزارِ
نـــراكَ علـــى دروب المجـــدِ تســـعى
حثيـــثَ الخطـــو فـــي حُلَـــلِ الوقـــارِ
عطـــاؤك مائـــلٌ فـــي ابـــنٍ شـــهيدٍ
ســـما للخلـــد فـــي يـــوم الفخـــارِ

إذا نُـــــدعى لمكرمـــــــة فإنـــــا
لخطـــوك تـــابعون علـــى المســـارِ

وبعد أن تسهب الشاعرة في الإشادة بشاعرية المحتفى به ومناقبه تنهي قصيدتها بهذه الأبيات التي تعبر فيها عن أملها بلقائه في المستقبل:

متـــى نلقـــاك فـــي زمـــنٍ قريـــبٍ
فيحلـــو فـــي لياليـــا النشـــيدُ
تُكِـــنُّ لـــك القلـــوبُ عظـــيمَ وُدٍّ
فأنـــتَ الصـــاحبُ الحـــقُّ الـــودودُ
أمـــا مَـــنْ موعـــدٍ نلقـــاكَ فيـــه
يُبَـــرْعِمُ فيـــهِ تغريـــدٌ جديـــدُ؟!
فتهتـــفُ حينمـــا يَلّـــتَمُّ شـــملُ
لقـــاؤكَ يـــا رجـــاءُ اليـــومَ عيـــدُ

أما الشاعرة جوهرة سفاريني فقد بدأت قصيدتها بقولها:

أخـــا الأحـــرارِ إن ترحـــلْ فإنّـــا لفُرْقَـــةِ مَـــنْ نحـــبُّ بنـــا عنـــاءُ
وهاتيـــكَ الليـــالي مســـرعاتٌ ويوشـــك أن يُغادرهـــا الهنـــاءُ
وجـــاد الـــدهر للأحبـــاب وصـــلاً كـــأن الـــدهرَ شـــيمتُهُ الوفـــاءُ!
تســـائلني الجـــوارحُ مـــن سيشـــدو بســـهرتنا إذا انعقـــد اللقـــاءُ؟
وكنـــا صُـــحبةً فيهـــا رجـــاءٌ بـــأن يشـــدو بجلســـتنا رجـــاءُ

ثم تختم الشاعرة في قصيدتها بقولها:

أكـــاد أفـــرُّ مـــن حُزنـــي لحزنـــي فقـــد شـــاءَ الزمـــان ومـــا نشـــاءُ
ســـألت لـــك الســـلامةَ حيـــثُ تمضـــي وحيـــث وضَـــعْتَ رَحْلَـــكَ يـــا رجـــاءُ

أما الشاعر المصري محمد يوسف فقد وجد في هذه المناسبة فرصة لتصوير ألمه لما وصلت إليه حال الأمة العربية من فرقة وتمزق وتجاهل لمأساة فلسطين، وتخل عن الكفاح المسلح من أجل استردادها.

يقول في هذه القصيدة مخاطباً المحتفى به الذي طالما رفع صوته المشاكس في المنافي المعتمة:

أأذيـــــعُ ســـــراً يـــــا "رجـــــا سُـــــمرين"
يـــا صـــوتي المشـــاكسَ فـــي المنـــافي المعتمـــة
وأقـــــــــــــــول إن الأنظمَـــــــــــــــة
لا تحتفـــــــــي إلا بجنـــــــرالٍ غُـــــــرابٍ
ثـــــم جنـــــرالٍ يبشِّـــــرُ بـــــالخرابِ
وتحتفـــــــــــــي بالأوســـــــــــــمة
أمـــــــــــــا القضـــــــــــــية
فـــــــــاقرأ عليهـــــــــا الفاتحـــــــــة
والّطُـــــــــم بهـــــــــا خـــــــــدَّيْكَ،
واخـــــــــــــصِ البندقيـــــــــــــة
فأنـــــــــــــا شـــــــــــــظيَّة
وكـــــذلك أنـــــت/ فهـــــل ستســـــألني لمـــــاذا؟
"الحلـــــو لابـــــسْ شفتشـــــي" / "لأه اختشـــــي"
"أســـــــدٌ علّـــــى وفـــــي الحـــــروبْ"
يـــــــــا هـــــــــل تُـــــــــرى...
يـــــأتي زمـــــانٌ فيـــــه يرتفـــــعُ الغلابـــــةْ
والعاشـــــــــــــقونَ ذوو الصـــــــــــــبابَةْ
وأنـــا وأنـــتَ... وكـــلُّ مـــن يَفْـــدي فلســـطينَ التـــي
صَـــــــــبَرَتْ علـــــــــى الإجهـــــــــاض
وانتفَضَـــــــتْ... وزانَـــــتْ نفسَـــــها بحجـــــارةٍ
تعلـــــــــو علـــــــــى الأنقـــــــــاضْ
أأذيـــــع ســـــراً يـــــا "رجـــــا سُـــــمرين"
لكـــــــــــــن "أوعَ تِزْعَـــــــــــــلْ"
"إنمـــــــــا الأعمـــــــــال بالنيـــــــــات..."
هـــل صَـــدَقَتْ نوايـــا أمـــةٍ... كانـــت تُـــراهنُ
ثـــــم تَـــــرْهَنُ حُلّمَهـــــا للمشـــــمشِ؟

******

آخ وآخ الحلـــــــــــــــم بـــــــــــــــاخ

والفجـــر داخ
والصـــــــــــــــــــــــبُّ شـــــــــــــــــــاخ
كيــــــف الســـــبيلُ إلــــــى خيــــار البندقيــــةْ؟
أنــــت مثلـــــي فــــاحفرِ الصـــخرَ المـــدبَّبَ...
وانــبشِ
-يـــا هـــل تـــرى فـــي الصـــخر مـــاءُ... أو "إشـــي"؟

أما الشاعر هلال الفارع فقد زف قصيدته إلى المحتفى به قائلاً:

جـــاءت إليـــك فـــلا ت!رُدَّ الموعـــدا
إن الحـــروفَ تـــراك فينـــا الأوحـــدا

عــزَّت علـــى الشـعراء فــاحترقوا بهـا
فأشِـــرْ إليهـــا بالبنـــانِ لتوجـــدا

وانظـــم تفاعيـــلَ القصـــيدِ كأنهـــا
دُرَرٌ تَقَلَّـــدَتْ القصـــيدَ الأجيـــدا

يـــا أيهـــا الرجـــلُ الـــذي بايعتُـــهُ
بـــدراً علـــى درب القـــوافي مُرْشـــدا

تســـتأنسُ الخطـــواتُ عنـــد تمامـــهِ
فتضـــيءُ مـــن ســـهلٍ لتَشْـــفِيَ أنْجُـــدا

صُـــبَّ القـــوافي فـــي مراجلنـــا فقـــد
تحيـــي الحـــروفُ علـــى يـــديك الموقـــدا

فلأنـــتَ فينـــا قائـــدٌ ومعلـــمٌ
ولأنـــت فينـــا لا تـــزال الأصْـــيَدا

وفي ختام الحفل ألقى الشاعر ربحي محمود قصيدة قال فيها:

مكانـــك يـــا أخـــي بشـــغافِ قلبـــي
وقـــدرُكَ عنـــدنا بلـــغَ الســـحابا

عهـــدتُك صـــادقاً حـــرًّا وفيًّـــا
وقلبـــاً فـــاضَ مـــن حـــبٍ رُضـــابا

وفكـــراً ثاقبـــاً صـــلباً قويًّـــا
يُحَلِّـــقُ فـــي الفـــلا يســـمو انتســـابا

أضَـــأتَ لقاءنـــا وشـــدوتَ فيـــه
وأشـــجيتَ الأحبـــةَ والصِّـــحابا

نثـــرتَ الشـــعرَ فـــي أرجـــاء روحـــي
نقيًّـــا صـــافياً فَحْـــلاً وطابـــا

وكنـــتَ الـــنجمَ فـــي ظُلَـــمِ الليـــالي
تـــلألأ ســـاطعاً وغـــزا الرِّحابـــا

قوافيـــكَ العـــذابُ لهـــا اصـــطخابٌ وبحـــرُك زاخـــرٌ يـــروي الشـــبابا

رجـــا يـــا أيهـــا الحُـــرُّ المُرَجَّـــى ســـتترك جمعَنـــا يشـــكو اغترابـــا

تعـــاتبني القـــوافي فـــي رحيـــلٍ فبعـــدَك شـــعرُنا بـــات انتحابـــا

هـــي الأيـــامُ لا تصـــفو لجمـــعٍ غَـــدَتْ شَـــبَحاً يعانـــدُ أو ســـرابا

القصة في الشعر العربي المعاصر

نشر هذا المقال في مجلة (كلية التربية الوطنية) عمان على حلقتين بعنوان(القصة في الشعر العربي المعاصر) في العددين: (5) و (6) على التوالي بتاريخ آذار1994 ، حزيران 1994م.

القصيدة الغنائية والقصة القصيرة فنان أدبيان متمايزان، لكل منهما سماته الخاصة التي تميزه عن غيره، ولكن القصة القصيرة تدنو أحياناً من القصيدة حتى لتكاد تكون قصيدة لا يعوزها إلا الموسيقا؛ كما أن القصيدة أحياناً تدنو من القصة حتى ليحسبها القارىء قصة أخضعتها ضرورة الانفعال للنغم الموسيقي.

التعبير عن بعض التجارب الشعرية ذاتية كانت أو جماعية في قالب قصصي من أحدث الظواهر في الشعر العربي المعاصر. ونحن لا ننكر أن الشعر العربي القديم قد عرف هذا الأسلوب من أساليب التعبير الشعرية. إلا أنه لم يكثر ولم يشكل ظارهرة تستحق الدراسة إلا في العصر الحديث.

وينبغي ألا يغرب عن البال أن القصة في هذا المجال ليست سوى قالب عام لا علاقة بينه وبين القصة بمفهومها الفني الحديث. فالقصة كما هو معلوم – طويلة كانت أم قصيرة – تتسم أولاً وقبل كل شيء بالموضوعية؛ بينما يتسم الشعر الغنائي بالذاتية.

ولكن على الرغم من ذلك فإن القصة القصيرة قد تدنو في بعض الأحيان من القصيدة حتى لتكاد تكون قصة لا يعوزها إلا الوزن الموسيقي؛ كما أن القصة قد تدنو أحياناً من القصة حتى ليحسبها القارىء قصة أخضعتها ضرورة الانفعال للنغم الموسيقي الذي ينتظم أجزاءها.

غير أن هذا التقارب بين هذين الجنسين من الأجناس الأدبية لا يمكنه أن يخفي ما بين كل منهما وبين الآخر من فروق. فالقصيدة مثلاً لا يمكن أن يخضعها الشاعر لموضوعية المنطق الصارمة؛

كما أنه لا يمكن أن يحرص فيها على ما يحرص القاص من اهتمام بالتفاصيل والتسلسل الكامل للأحداث وتحديد أبعاد الشخصيات وما تمتاز به من ملامح جسدية ونفسية واجتماعية.

وفي الوقت نفسه فإن القاص لا يحسن إبراز الانفعالات وتصوير العواطف بالقدر الذي يحسنه الشاعر؛ وما ذلك إلا أن خياله مهما بلغ من القوة فإنه لا يمكن أن يبلغ شأو خيال الشاعر أو يوازيه.

والأسلوب القصصي في الشعر العربي قديم قدم هذا الشعر نفسه، فقد لجأ إليه عدد من الشعراء القدامى في تصويرهم لعض تجاربهم الشعرية التي تتناول أغراضا بعينها، وفي مقدمة هؤلاء امرؤ القيس والنابغة الذبياني والحطيئة وعمر بن أبي ربيعة وسواهم.

وقد كثر استخدام شعراء العصر الحديث وشاعراته لهذا الأسلوب حتى لا يكاد يخلو منه ديوان شاعر. وفي مقدمة هؤلاء أمير الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران والرصافي والزهاوي والأخطل الصغير وبدر شاكر السياب وإيليا أبو ماضي وأسعد رستم ومسعود سماحة وعقل الجرو وأحمد رفيق المهدوي وأبو القاسم الشابي ونازك الملائكة وفدوى طوقان وسواهم من الشعراء المحدثين.

أما القضايا التي أثارها شعراء العصر الحديث في قصائدهم القصصية فهي إما شخصية لم يستطع الشعراء فيها إخفاء ذواتهم فجعل بعضهم من نفسه شخصية من شخصيات قصيدته القصصية، واكتفى بعضهم بوصف عواطفه وانفعالاته على لسان أبطال قصصهم الشعرية هذه وبطلاتها. وربما كان الحب أو التضحية في سبيل الوطن موضوعاً لهذه القصائد.

وإما اجتماعية لجأ فيها الشعراء إلى تصوير المآسي الاجتماعية، أو طرحوا فيها بعض المشكلات التي تعاني منها المجتمعات العربية.

وإما وطنية استوحى الشعراء موضوعاتها من واقع الكفاح الذي خاضته وتخوضه شعوبهم.

وإما أسطورية حملوها مضامين رمزية لا تخفى دلالاتها على القراء.

ومن القصائد القصصية ذات الطابع الشخصي قصيدة "رعاية الأطفال" التي أنشدها حافظ إبراهيم في الحفل الذي أقامته جمعية رعاية الأطفال في دار الأوبرا المصرية سنة 1910 م ومطلعها:

شـــبحاً أرى أم ذاك طيـــف خيـــال لا بـــل فتـــاة بـــالعراء حيـــالي
أمســـت بمدرجـــة الخطـــوب فمالهـــا راع هنـــاك ومـــا لهـــا مـــن والـــي

وقد صاغ شاعر النيل قصيدته هذه في صورة قصة بدأها برؤيته شبحاً لم يتبين ماهيته، ثم عرف بعد أن أمعن النظر أنه خيال فتاة بائسة هدها الهزال وبراها السقام، ومات كل أقربائها فأصبحت وحيدة تجابه رياح الأحداث دون معين.

ويسألها الشاعر عن حالها فتخبره بأنها حامل وأنه لا عائل لها ولا نصير، فيتعاطف الشاعر معها ويصف لنا جمالها الذي توشك أن تعصف به فوادح الأثقال مبيناً لنا أن أقدح البؤس ما بدا في النساء. ثم يحمل الشاعر المرأة على ظهره وينقلها إلى دار رعاية الأطفال:

فحملـــت هيكـــل عظمهـــا وكـــأنني حملـــت حـــين حملـــت عـــود خـــلال
وطففـــت أنتهـــب الخطـــأ متيممـــا بالليـــل دار رعايـــة الأطفـــال
أمشـــي وأحمـــل بائســـين فطـــارق بـــاب الحيـــاة، ومـــؤذن بـــزوال

وتفتح الأيدي الطاهرة التي تعودت صنع الجميل باب الدار، ويبادر القائمون على الأمر فيها إلى إسعاف الفتاة والعناية بها دون أن يخجلوها بالسؤال. وهنا يستريح ضمير الشاعر بعد أن أدى واجبه الإنساني نحو هذه المرأة ويخرج من الدار منشرح الصدر، رضي النفس بعد أن تركها بين أهلها وذويها:

وطرقـــت بـــاب الـــدار لا متهيبـــا أحـــدا ولا مترقبـــا لســـؤال
وإذا بأيـــد طـــاهرات عـــودت صـــنع الجميـــل تطوعـــت فـــي الحـــال
لـــم يخجلوهـــا بالســـؤال عـــن اســـمها تلـــك المـــروءة والشـــعور العـــالي
ودعتهـــا وتركتهـــا فـــي أهلهـــا وخرجـــت منشـــرحا رضـــي البـــال

وكان الشاعر العراقي معروف الرصافي من أكثر شعراء عصره استخداماً للأسلوب القصصي في صياغة تجاربه الشعرية ومن قصائده في هذا المجال قصيدة "أم اليتيم في العيد"، وقصيدة

"المطلقة" وقصيدة "الأرملة المرضعة" وغيرها. ويطول بنا الحديث إذا شئنا التعرض إلى كل قصيدة من هذه القصائد، لذا فإننا سنقصر حديثنا عن قصيدتين من قصائده في هذا المجال.

في قصيدة الرصافي "اليتيم والعيد" ويحكي لنا الشاعر قصة يتيم رآه صبيحة عيد النحر وهو يرتدي دريساً خلقا يقطر الفقر من أردانه وحواشيه، ويقف بذلة بين أترابه الذين تطل الفرحة من عيونهم ويشع النعيم من ثيابهم، فيتقدم الشاعر نحوه ليسأله عن مصابه، ولكن الصغير يعرض عنه دون أن ينبس ببنت شفة. ويدفع الشاعر الفضول إلى تتبعه حتى يراه يدخل بيتاً، فيقف على بابه يتسمع إلى ما ينبعث منه من بكاء وعويل.

وتمر به عجوز تدعي بوزع وتخبره بعد أن يسألها أن الباكية أم تدعى سلمى مات جميع اهلها ولم يبق منهم سوى زوجها سعيد وشقيقها خليل. ولم يلبث المقدور أن غال خليلها سعيد فقام على أمرها وأمر صغيرها شقيقها خليل الذي لم يلبث أن زج به رئيس الشرطة في السجن بسبب تهمة باطلة. ويعود الشاعر من حيث أتى موجع القلب متمنياً لو أن العيد لم يجيء لأن قدومه يجدد أحزان المحزونين. وقد بدأ الشاعر قصيدته هذه بقوله:

أطل صباح العيد في الشرق يسمع ضجيجاً به الأفراح تمضي وترجع
صباح به تبدي المسرة شمسها ولـيس لها إلا التوهم مطلع
صباح به يختال بالوشى ذو الغني ويعوز ذا الإعدام طمر مرقع

ثم يختمها بعد أن يقف على سر مأساة اليتيم وأمه بقوله:

فعدت وقلبي جازع متوجع وقلت وعيني ثرة الدمع تهمع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه يجدد للمحزون حزناً فيجزع

وللرصافي قصة شعرية بعنوان "المطلقة" يحدثنا فيها عن السعادة والحب اللذين كانا يربطان بين زوجين شابين وكيف أن هذه السعادة قد تلاشت بعد أن اضطر الأصدقاء الزوج أن يحلف في سورة غضب بالطلاق ثلاثا من زوجته التي بانت بينونة كبرى لا رجعة منها إليه. وقد بدأ الشاعر قصيدته بوصف الزوجة قائلاً:

بـــدت كالشـــمس يحضـــنها الغـــروب فتـــــاة راع نضـــــرتها الشـــــحوب
منزهـــــة عـــــن الفحشـــــاء خـــــود مـــــن الخضـــــرات آنســـــة عـــــروب
حليلـــــة طيـــــب الأعـــــراق زالـــــت بـــــه عنهـــــا وعنـــــه بهـــــا الكـــــروب
رعـــــى ورعـــــت فلـــــم تـــــرقط منـــــه ولـــــم يـــــرقط منهـــــا مـــــا يريـــــب

ومنها في وصف أسباب مأساة الزوجين:

فغاضـــب زوجهـــا الخلطـــاء يومـــا بـــــأمر للخـــــلاف بـــــه نشـــــوب
فأقســـــم بـــــالطلاق لهـــــم يمينـــــا وتلـــــك آليـــــة خطـــــأ وحـــــوب
وطلقهـــــا علـــــى جهـــــل ثلاثـــــا كـــــذلك يجهـــــل الرجـــــل الغضـــــوب
وأفتـــــى بـــــالطلاق طـــــلاق بـــــت ذو فتيـــــا تعصـــــبهم عصـــــيب

ثم يصور الشاعر النكبة التي حلت بالزوجين في هذا الحوار المؤثر الذي تبدؤه الزوجة بقولها:

لمـــاذا يـــا نجيـــب صـــرمت حبلـــي؟ وهـــل قـــد بنـــت عنـــدك يـــا نجيـــب؟!
ومـــا لـــك قـــد جفـــوت جفـــاء قـــال وعـــــدت إذا دعوتـــــك لا تجيـــــب؟!
أيـــن ذنبـــي إلـــي فـــدتك نفســـي فـــــإني عنـــــه بعدئـــــذ أتـــــوب
أمـــــا عاهـــــدتني بـــــالله ألا يفـــــرق بيننـــــا إلا شـــــعوب؟!

ويطرق الزوج برأسه حزناً ويجيبها قائلاً:

نجيبـــــة أقصـــــري عنـــــي فـــــإني كفـــــاني مـــــن لظـــــى النـــــدم اللهيـــــب
ومـــــا والله هجـــــرك باختيـــــاري ولكـــــن هكـــــذا جـــــرت الخطـــــوب
فلـــيس يـــزول حبـــك مـــن فـــؤادي ولـــيس العـــيش دونـــك لـــي يطيـــب

وبعد أن يفرغ الشاعر سرد مأساة الزوجين يطالب المجتمع بعدم إيقاع الطلاق البائن على من يطلق زوجه ثلاثا دفعة واحدة ثم يشيد برأي ابن القيم وأستاذه ابن تيمية اللذين كانا يريان إيقاع هذا النوع من الطلاق تطليقة واحدة، ثم يطالب المعاصرين بالأخذ برأيهما هذا لمناسبته لروح العصر ولأن الدين قبل كل شيء يسر لا عسر ولا يشاده أحد إلا غلبه.

ألا قـــل فـــي الطـــلاق لموقعيـــه بمـــا فـــي الشـــرع لـــيس لـــه وجـــوب
غلـــوتم فـــي ديـــانتكم غلـــوا يضـــيق ببعضـــه الشـــرح الرحيـــب

أراد الله تيســـــــــــيرا وأنـــــــــــتم مـــــن التعســـــير عنـــــدكم ضـــــروب

وقد ختم الشاعر قصيدته تلك بالإشادة بابن القيم وأستاذه ابن تيمية ورأيهما في هذه القضية:

فـــدى ابـــن القـــيم الفقهـــاء كـــم قـــد دعـــــاهم للصـــــواب فلـــــم يجيبـــــوا

نحـــــا فيمـــــا أتـــــاه طريـــــق علـــــم نحاهـــــا شـــــيخه الحبـــــر الأريـــــب

وبـــــين حكـــــم ديـــــن الله لكـــــن مـــــن الغـــــالين لـــــم تعـــــه القلـــــوب

المآسي الاجتماعية نتيجة حتمية للفقر الذي ترزخ تحت وطأته الغالبية العظمى من أبناء البشرية، وقد ظلت هذه المآسي المعين الذي لا ينضب بالنسبة للشعراء الذين استقوا منه قصائدهم القصصية.

وكان شعراء العراق وفي مقدمتهم الرصافي والزهاوي والصافي النجفي وبدر شاكر السياب في مقدمة الذين برعوا في إبداع هذا اللون من الشعر.

وحسبنا أن نشير إلى قصيدة (المومس العمياء) التي تقرب من خمسمائة بيت وهي لبدر شاكر السياب كنموذج حي للشعر القصصي الناضج، ومطلعها:

الليـــل يطبـــق مـــرة أخـــرى فتشـــربه المدينـــة
والعـــابرون إلـــى القـــرارة مثـــل أغنيـــة حزينـــة
وتفتحـــت كأزهـــار الـــدفلى مصـــابيح الطريـــق
كعيـــون "ميـــدوزا" تحجـــر كـــل قلـــب بالضـــغينة
وكأنهـــا نـــذر يبشـــر أهـــل بابـــل بـــالحريق

وفي هذه القصيدة يحكي لنا السياب قصة فتاة عمياء اضطرت إلى بيع نفسها للرجال بعد أن فقدت والدها الفقير، وتتجلى مأساة هذه المومس في اضطرارها إلى دفع ثمن الزيت الذي تملأ به قنديل بيتها ليتمكن الرجال من رؤية جسدها البض.

ومما يحز في النفس أنها كانت تدفع ثمن الزيت من سهاد عينيها المكفوفتين في الوقت الذي كان فيه العراق يبعثر زيته ودماء أبنائه من أجل الحلفاء في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل.

والقصيدة مفعمة بالرموز الأسطورية التي استقى الشاعر معظمها من الأساطير اليونانية. ومنها رمز "ميدوزا" التي كانت تحول كل عين تلتقي بعينيها إلى حجر. وقد جعل الشاعر المصابيح التي تنير شوارع بغداد كعيون ميدوزا التي تحجر كل شيء. واستخدم الشاعر كذلك رمز الغراب الذي أرشد قابيل إلى الطريقة التي يواري بها جثة أخيه. وأشار كذلك إلى أسطورة الملك "أوديب" وأمه "جوكستا" التي تزوجها دون أن يدري أنها أمه. وإلى أسطورة أبي الهول وهو الوحش الذي كان يقف على باب "طيبة" ليلقي لغزاً على غريب يفد إلى المدينة. فإن حله نجا، وإلا فتك به. وأشار كذلك إلى أسطورة الإلهة الإغريقية "أفروديت" التي ولدت من زيب البحر، وإلى أسطورة "فاوست" الذي باع نفسه

للشيطان، وإلى أسطورة "أبولو" إله الشمس الجبار عند الإغريق. وهو الذي طارد "دفيني" ابنة أحد الآلهة الصغيرة، وحاول اغتصابها ولكن أباها أحالها إلى شجرة غار تضفر من أغصانها الأكاليل للأبطال. وقد شبه الشاعر سور الشقاء الذي تحاول البغايا حفره بأظافرهن ليتخلصن منه بالسور الذي ورد ذكره في أسطورة "يأجوج ومأجوج" اللذين يظلان يلحسانه بلسانهما كل يوم حتى يصبح في رقة قشرة البصل، حتى إذا أدركهما التعب وجلسا للراحة على نية أن يستأنفا العمل في الغد اكتشفا أن السور قد عاد إلى ما كان عليه من صلابة وسمك ومتانة. وسيظلان يعذبان على هذا النحو حتى يولد لهما طفل يدعى "إن شاء الله" فيحطم السور، وكأني بالسياب قد رمز بهذا الطفل إلى المنقذ الذي تنتظره الإنسانية ليخلصها من شقائها السرمدي.

وفي رأيي أن استخدام الرمز الأسطوري في الشعر العربي المعاصر لا يمكن أن يؤدي الغرض منه إلا إذا عمت الثقافة الأسطورية جمهور القراء. أما أن يتسخدمه الشاعر ثم يعمد إلى إحالة القارىء إلى الهامش الذي يشرحه له فيه، فإنه يهبط به في هذه الحالة إلى مستوى التشبيه العادي ويفقده القدرة على الإيحاء المطلوب.

وللشاعر اللبناني بشارة الخوري الملقب "بالأخطل الصغير" قصيدة قصصية بعنوان "رب قل للجوع" ومطلعها:

المهـــا أهـــدت إليهـــا المقلتـــين والظبـــا أهـــدت إليهـــا العنقـــا
فهمـــا فـــي الحســـن أســـنى حلتـــين للعـــذارى، جـــل مـــن قـــد خلقـــا

وفي هذه القصيدة يحكي لنا الشاعر مأساة غادة حسناء تدعى "مي" قتل أبواها في الحرب العالمية الثانية وتركا لها أخاً صغيراً لا يتجاوز عمره عامين، وقد وقعت هذه الفتاة فريسة لخداع عجوز تتاجر بالأعراض حيث قادتها بحجة إيجاد عمل لها إلى متصرف جبل لبنان الإقطاعي الفاجر الذي اعتدى عليها وحولها إلى امرأة تأكل بثدييها لتعيل نفسها وشقيقها الصغير.

وقد عنيت الشاعرات المعاصرات بصوغ القصائد القصصية كزملائهن الشعراء، ولا يكاد يخلو من ذلك ديوان شاعرة.

وممن فعلن ذلك الشواعر نازك الملائكة، وعاتكة الخزرجي وفدوى طوقان ووفاء وجدي وملك عبدالعزيز وجليلة رضا وغيرهن.

ومن قصائد نازك القصصية قصيدة "الخيط المشدود في شجرة السرو" وقصيدة " شجرة القمر": وهي في هذه القصيدة تحكي لنا قصة خيالية رمزية ملخصها أن غلاماً ألحت عليه فكرة سرقة القمر ليكون له وحده، ولكن ما أن يحقق الغلام أمنيته بسرقة القمر حتى يتكشف له أن الدنيا كلها تحب القمر وتريده، وأنها لا تسمح لأحد بأن يستأثر به وحده، فيثور عليه الرعاة والصيادون وتكون ثورتهم تلك رمزاً للحق العام في القمر أو في الطبيعة، وعندما تطوق الجماهير الثائرة كوخ الغلام سارق القمر، وتبدأ في هدم جداره محاولة استرداد قمرها الحبيب يؤخذ الغلام بالمفاجأة، ويحار فيما يفعل، ثم ينتهي به تفكيره إلى دفن القمر في أرض كوخه ليخفيه عن أعين المهاجمين.

ومـــرت دقـــائق مـــنفعلات وقلـــب الغـــلام
تمزقـــه مديـــة الشـــك فـــي حيـــرة وظـــلام
وجـــاء بفـــأس، وراح يشـــق الثـــرى فـــي ضـــجر
ليـــدفن هـــذا الأســـير الجميـــل... وأيـــن المفـــر؟!

وينجح الثوار في اقتحام الكوخ، ولكنهم بدلاً من أن يجدوا قمرهم المسروق، الذي أنهكوا أنفسهم في سبيل إنقاذه، وجدوا الغلام مستغرقاً في نومه وأحلامه اللذيذة، فيعودون إلى أكواخهم حائرين وقد ساورهم الشك في اتهام الغلام. أما الغلام فإنه عندما يستيقظ من نومه صباحاً يشاهد في ساحة كوخه التي لم تكن تنبت غير العشب سدرة عظيمة سامقة لا مثيل لها بين الشجر، وقد تدلى من أغصانها الخضراء المثمرة أقمار فضية متألقة.

هنالـــك كانـــت تقـــوم وتمتـــد فـــي الجـــو ســـدرة
جـــدائلها كســـيت خضـــرة خصـــبة اللـــون ثـــرة
وأيـــة معجـــزة لـــم يصـــلها خيـــال الشـــجر
جميعـــاً فمـــن كـــل غصـــن طـــري تـــدلى قمـــر

وكأني بالشاعرة قد رمزت بالغلام إلى الفنان الذي يحب الطبيعة أكثر من غيره، وبهذه الشجرة التي استنبتها الغلام إلى النماذج المختلفة من الأعمال الفنية التي تبدعها قريحة الفنان الذي يحول مظاهر الطبيعة المختلفة إلى قصائد ولوحات وصور وأنغام.

وقد أنهت الشاعرة قصتها بإعادة الغلام للقمر العام إلى الوجود بعد أن قنع بتلك الأقمار التي أبدعها خياله المفن.

ولفدوى طوقان عدد من القصائد القصصية منها: رقية، وهو وهي، ونداء الأرض وغيرها. تصور لنا فدوى حسرة لاجيء فلسطيني شيخ أخرج من وطنه الذي قضى فيه زهرة عمره، وقد عبرت عن التياعه بهاتين الصورتين الموحيتين:

ومـــــاج بعينيـــــه كنـــــز الســـــنابل يحضـــــنه الحقـــــل خيـــــراً مطـــــلاً
ولاح لـــــــه شـــــــجر البرتقـــــــال وهـــــو يـــــرف عبيـــــراً وظـــــلاً

وإلى هاتين الصورتين تراها تضيف هذه التساؤلات التي تحمل معنى استنكار اللاجيء لمصيره الذي آل إليه:

أتغصـــب أرضـــي؟! أيســـلب حقـــي وأبقـــى أنـــا
حليـــف التشـــرد أصـــحب ذلـــة عـــاري هنـــا
أأبقـــى هنـــا لأمـــوت غريبـــاً بـــأرض غريبـــة؟!
أأبقـــى. ومـــن قـــالا؟ ســـأعود لأرضـــي الحبيبـــة

وتظل فكرة العودة تلح على الشيخ، وتشعل شوقه للأرض حتى يقدم على تنفيذها في ليلة من ليالي الربيع حيث يسير صوب أرضه في شبه غيبوبة إلى أن يصطدم بالأسلاك الشائكة التي أقامها العدو:

هنـــــاك تناهـــــت خطـــــاه هنـــــاك تســـــمر عنـــــد الســـــياج العتيـــــق
هنـــــاك تـــــيقظ وعيـــــا وهيفـــــا وحســـــنا عجيـــــب التلقـــــي دقيـــــق

وما أن يصل السياج حتى تزدحم المشاعر والصور في نفسه فيهوي على أرضه، يشم ثراها ويضم لآليء حصاها.

ومـــــــرت كالطفـــــــل فـــــــي صـــــــدرها الرحـــــــب خـــــــدا وفـــــــم
وألقـــــــى علـــــــى حضـــــــنها كـــــــل ثقـــــــل ســـــــنين الألـــــــم

ثم يستغرق الشيخ العائد في مناجاة أرضه إلى أن يقطع مناجاته لها صدى طلقتين يسددهما إليه أحد أفراد العدو اللئيم... فيخر الشيخ صريعاً فوق ثراه ليستريح جسده المتعب في أعماقه إلى الأبد.

أما الشاعرة المصرية وفاء وجدي فقد سردت على رفيقها في قصتها الشعرية "فوق القمة" قصة عصفورة وحيدة حاولت أن تبني عشا بمفردها على غصن تملكه فوق شجرة، ولكنها لم تستطع، فرآها عصفور أخضروهي تحاول نقل سنبلة قطفتها من أحد الحقول الخصبة، فأعانتها على نقلها. وكان يملك هو الآخر سنبلة أخرى ساعدته العصفورة في نقلها، وتعاونا في بناء العش، وعاشا سعيدين في عشهما الجميل الذي شيداه فوق أعمدة من التعاون المتبادل والحب الوثيق.

هـا نحـن رفيقـي فـوق القمـة فـي أبهـى مرتـع
والعـــالم مـــن هـــذي الشـــرفة يبـــدو أروع
أعيننـــا تلـــتهم الـــدنيا وتعـــب العـــالم فـــي نظـــره
الروعـــة تكمـــن فينـــا، فـــي الإحســـاس الملهـــم
الروعـة كـل الروعـة تكمـن فـي جوهرنـا المـبهم

وفي ختام القصيدة تحث الشاعرة رفيقها على أن يبذل كل ما في وسعه ليتمكن بالتعاون معها من الاحتفاظ بالتربع فوق القمة التي وصلا إليها بعد جهد شاق لأن البقاء فوق القمة أهم من الوصول إليها:

واليـــــــــوم علينـــــــــا أن نســـــــــأل
كـــم نبـــذل بعـــد اليـــوم رفيقـــي مـــن جهـــد
لنظـــــــل معـــــــاً فـــــــوق القمـــــــة

ومن الواضح أن ما ترمي إليه الشاعرة في قصيدتها القصصية هذه هو حتمية قيام تعاون وثيق بين جناحي المجتمع المكون من الرجل والمرأة إذا هما رغبا في تحقيق ما ينشدان من أهداف، لأن أيا

من الجناحين بمفرده لا يستطيع أن يطير إلى أية قمة، أو يحقق شيئاً. وقد جعلت الشاعرة من السنبلة رمزاً لأعباء الحياة وتكاليفها التي لا يستطيع أحد الرفيقين أن ينهض بها وحده.

في الذكرى المئوية لميلاد فارس السيف والقلم

"برهان الدين العبوشي"

احتفاءً بالذكرى المئوية لميلاد "فارس السيف والقلم" المجاهد والأديب الراحل *(برهان الدين العبوشي) أقامت جامعة البتراء الخاصة في المملكة الأردنية الهاشمية ندوة علمية تكريمية للأديب الراحل في التاسع من شهر يناير لعام 2012م. تضمنت الندوة شهادات حول هذا الأديب شارك بها مجموعة من الأساتذة الأفاضل، ومنهم الدكتور رجا سمرين. وفي نهاية الحفل وزعت على المشاركين شهادات تقدير ودروع تكريمية. وفيما يلي الكلمة التي ألقاها الدكتور رجا سمرين:*

باسم الذي علم بالقلم؛ علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على صاحب السيرة الأعظم محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأنصاره وتابعيه وسلم وبعد؛ فإننا قبل أن نتحدث عن أدب السيرة في تراث العبوشي لابد لنا من أن نتعرف على ماهية السيرة بقسميها: الذاتي، والغيري.

أما السيرة الذاتية فكما عرّفها الأستاذ الناقد "لوجون فيليب" في كتابه (السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي) الصادر عام 1994م فهي "جنس أدبي منفصل أو متداخل مع أجناس أدبية أخرى، وهي حكي مستعاد نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته."

وقد عدّل الأستاذ "لوجون" هذا التعريف تعديلاً طفيفاً عندما أضاف إليه كلمتين هما "بصفة خاصة" وبهذه الإضافة يكون "لوجون" قد وضع حدّاً شموليّاً وميثاقاً معياريّاً لمصطلح السيرة الذاتية في إعادة بناء الحياة ضمن وقائع صادقة.

وفيما يخص درجة الصدق في السيرة الذاتية فإن الدكتور "إحسان عباس" يقول: "إن الصدق الخالص في السيرة الذاتية أمر يلحق بالمستحيل، لأن الحقيقة فيها صدق نسبي مهما أخلص صاحبها في نقلها على حالها، ولذلك فإن الصدق في السيرة الذاتية محاولة وليست أمراً متحققاً."

ولما كانت كلمة السيرة في اللغة تعني السُنّة أو الطريقة فإن السيرة الذاتية في جوهرها عبارة عن تواصل لغوي بين كاتبها ومجتمعه.

وعندما يتصدى دارس مثلي إلى الحديث عن سيرة ذاتية لشاعر أو مؤرخ أو سياسي أو مبدع من المبدعين فإنه يحولها إلى سيرة غيرية مهمتها البحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من خلال ظروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلفه في جيله والأجيال التي بعده. ومن أشهر السير الغيرية في الأدب العربي المعاصر: سلسلة العبقريات "للعقاد"، والوعد الحق "للدكتور طه حسين"، وفاروق كما عرفته "لكريم ثابت"، وحياة محمد "لمحمد حسين هيكل"، وعلي إمام المتقين "لعبدالرحمن الشرقاوي".

أما فيما يتعلق بالسيرة الذاتية فإن كلا من الناقد "ليتون ستراشي" و "ليون إدل" يري (أنها من أدق وأرقى فنون الكتابة على الإطلاق.)

وليس أدل على صدق هذا الرأي من أن كاتب السيرة الذاتية يقسّم سيرته عادة إلى أبعاد متعددة يزعم فيها أنه يتحدث عن كل بُعد منها بالصدق والتفصيل مع أن كلا منها أمر نسبي كما ذكرنا.

أما الأبعاد التي يتحدث عنها صاحب السيرة الذاتية فهي:

أولا: البعد الذاتي: وهو بعد واسع يندرج تحته أبعاد ضيقة متعددة مثل:

أ- البعد البيولوجي أو الجسدي.

ب- البعد النفسي.

ت- البعد الأدبي.

ث- البعد الأخلاقي.

ثانياً: البعد الاجتماعي:

أ- وفيه يتطرق كاتب السيرة الذاتية إلى الحديث عن البعد الأسري أو العائلي.

ب- البعد الوظيفي.

ت- والبعد المهني.

ث- والبعد البيئي.

ثالثاً: البعد السياسي: ويشتمل على عدة أبعاد:

أ- البعد الوطني.

ب- البعد القومي.

ت- البعد الإنساني.

ومن أشهر السير الذاتية المعاصرة كتاب (الأيام) للدكتور طه حسين (وكتاب حياتي) لأحمد أمين (ويوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم، (ومذكرات الحاج أمين) المفتي السابق لفلسطين (ورحلة جبلية) لفدوى طوقان (والبحث عن الذات) للرئيس أنور السادات، (ومذكراتي) لهزّاع المجالي (والشريط الأسود) لعيسى الناعوري (وإلى ولدي) للبدوي الملثم يعقوب العودات، (ومهنتي كملك) للملك الحسين بن طلال (والبدايات) ليعقوب زيادين. وقد أصدر الأستاذ فايز فلاح قاسم عثامنة سنة 2007 كتاباً عن السيرة الذاتية في الأردن تناول فيه بالدراسة والتحليل خمساً من السير الذاتية التي صدرت ما بين عامي 2000 و 2005م؛ أما هذه السير فهي (ثمانون) للمؤرخ سليمان الموسى، (ومدارات الذاكرة) لفالح الطويل، (ومن بيت الشعر إلى سدة الحكم) لعبدالسلام المجالي، (وإلى الهداة) لوهدان عويس، (وأوراق الشتات) للمتحدث إليكم رجا سمرين.

وقبل أن نتطرق إلى الحديث عن أدب السيرة في تراث العبوشي والذي وسمه بقوله: "من السفح إلى الوادي أُلبي صوت أجدادي"، لا بد لنا من الإشارة إلى أن شاعرنا من أرباب السيف والقلم. (وأرباب السيف والقلم) مجموعة من الشعراء لم يكتفوا بقول الشعر بل ناضلوا بسلاحهم دفاعاً عن شعوبهم في الحروب والثورات وعما يؤمنون به من مبادىء ومُثُل إنسانية. ومن هؤلاء في العصور العربية

الأولى: الأفوه الأودي، والنابغة الذبياني، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، والطرماح بن حكيم الخارجي، وعلي بن أبي طالب، والمتنبي، وأبو فراس الحمداني، والمعتمد ابن عباد. ومن المعاصرين محمود سامي البارودي وعبدالرحيم محمود وبرهان الدين العبوشي.

هذا وعلى الرغم من أن العبوشي قد كتب مذكراته فيما لا يزيد عن مائة وثمان وعشرين صفحة من القطع الكبير فإنه قد تمكن من إلقاء أضواء كاشفة كافية على سيرته الذاتية محدداً العديد من أبعادها الذاتية والاجتماعية والسياسية، غير أنه لم يتخذ من هذه الأبعاد عناوين لمذكراته. ولذلك فإنه جعل من العناوين التالية أجزاءً لهذه المذكرات وهي: "عهد الطفولة"، ويندرج تحته عدد من العناوين الفرعية، ثم "المرحلة الثانوية" ويشتمل على عدة عناوين فرعية، ثم "ثورة 1936" وتحتها ست عناوين، "ودخول فلسطين" ويحتوي على ستة عناوين متفرعة عنه، "وفي العراق ثانية" ويشتمل على سبعة عشر عنواناً فرعياً تنتهي بها المذكرات.

وقد خلت مذكرات شاعرنا من الحديث عن عامل الصدفة الذي لا يكاد يخلو منه سيرة ذاتية والذي يعتبره الفيلسوف الوجودي المصري عبدالرحمن بدوي "أنه ليس إلا شيئاً ناجماً عن أسباب عارضة يدفع بعضها بعضاً فتؤدي إلى إيجاد ما يوجد وإعدام ما يُعدم." والتي لا أعترف أنا شخصياً بوجودها لأنني أعدها تدبيراً إلهياً محكماً يأتي في موعده المُقدّر، وليست أمراً عشوائياً كما يظنه البسطاء.

بدأ شاعرنا أبو سماك برهان الدين العبوشي الحديث عن البعد الذاتي في حياته بحمدالله الذي خلقه من بين الصلب والترائب ولم يكوِّن منه سلحفاة تزحف على بطنها ولا دابةً تبول على نفسها وتخضع لمُذِّلها وتجهل سر ما يحيط بها من جمال القبح وقبح الجمال، خلقه إنساناً ذا حواسٍ خمسٍ أو ست يتصور نفسه في هذا الخِضَمِّ الثائر من الحسِّ والوجدان والعاطفة.

وقد حكى لنا شاعرنا شيئاً من طفولته فقال: إنه قد استهل صارخاً في اليوم السابع من كانون أول عام 1911 وأن أمَّه قد أمضت ثلاثة أيام خطِرة في مخاضها بسبب كبر رأسه، وأنها أشرفت على الموت لولا أن قَيَّضَ الله لها عم والده الحاج مصطفى العبوشي وكان في التسعين من عمره فقرأ

عليها رُقْيَةً من آيات الله بعد أن بادر بعقد منديل في عنقها فيسَّر الله عليها مخاضها ووضعت وليدها برهان العبوشي.

وقد تساءل شاعرنا بعد أن أصبح أديباً واعياً وشاعراً مبدعاً عن حال الجنين وهو في ذلك السجن الضيق من رحم أمه قائلاً: "ماذا يكون حاله لو متعه الله بالوعي؟!" ثم أجاب على تساؤله هذا بقوله: "كان من الممكن أن يمزق أحشاءها ليخرج إلى الوجود بسرعة، أو أن يلف حبل سرته حول عنقه لينتحر قبل أن يخرج إلى دار التعاسة والشقاء. فسبحان الخالق الأعظم الذي سلب الوعي عن هذا الجنين، لأنه لو لم يفعل ذلك لما كان هنالك بشر على وجه الأرض."

وفيما يروي لنا الشاعر من أحداث طفولته هو أن عمه عبدالرحيم اقتحم بفرسه "سَمْحَة" مدينة جنين وهي تحترق بعد أن احتلها الإنجليز وأردفه خلفه على فرسه ليقيموا في قريتهم "بيت قاد" وقد ظلوا هناك حتى عادت الأمور إلى طبيعتها وأتم الإنجليز تفتيش بيوت جنين بحثاً عن السلاح. وقد عادت والدة الشاعر الحاجة "مِشْخِص" إلى جنين ومعها شقيق الشاعر الأصغر حسني وهو في مهده. وكان قد أغمي عليها وهي في طريقها إلى جنين خوفاً من طائرات الحلفاء.

ومما يذكره الشاعر من أحداث طفولته هو أنه قد أحبَّ أن يداعب أخاه حسني فجذبه من رجله فخرج عظم فخده من مكانه، غير أنّ الطبيب أعاده إلى موضعه. وقد تزوج حسني هذا من امرأة من آل قريشي الباكستانية وأنجب منها جلالاً وشقيقاته رابعة وميسون وريم وهم يعيشون في لندن حتى الآن.

ومن الأحداث التي وعاها في طفولته والتي لم تفارق مخيلته مدى الحياة أنين الجرحى من الترك الذين كانوا يملأون الطريق بين قريتي بيت قاد ودير أبي ضعيف صائحين بالتركية "أمان ربي أمان."

ومنذ أن استتب الأمر للإنجليز لم يعد شاعرنا يعي شيئاً من الأحداث وهو في المدرسة الابتدائية في جنين سوى أن المعلمين كانوا يلقنون طلابهم بعض الأناشيد الوطنية ليقاوموا بحفظها النشيد البريطاني الذي فرضته دائرة المعارف الإنجليزية والذي يقول أحد مقاطعه: "يا إلهي احفظ مليكنا العظيم."

ويعترف شاعرنا برهان الدين بأن عائلته لم تكن ذات سطوة في جنين من إبراهيم باشا المصري، وأنهم كانوا قلة وأن أكثرية العائلة كانت في مسقط رأسها الأصلي في كفر عبوش من قضاء بني صعب في طولكرم وأن أصلهم من نجران في الحجاز.

ويذكر الشاعر أن سِنَّه وأسنانَ زملائه في المرحلة الابتدائية كانت سِنَّ رجال، وأنهم كانوا يحاربون الإنجليز بالإضرابات والعصيان ورشق سياراتهم بالحجارة. وهو يتذكر بأنه قد حكم عليه بغرامة قدرها جنيه وعشرة قروش لأنه حمل شرطياً يهودياً وضرب به الأرض وتسبب في قطع أزرار سترته الرسمية، ويذكر كذلك أن مدير مدرستهم الأستاذ يحيى الشهابي قد ضربه فلقةً وهو في الرابع الابتدائي وكان نصيبه منها 48 عصا لم يشعر بها لأنه كان قد حشا جوْرَبيْه بالقطن قبل ضربه، وأن سبب ضربه وزملاءه هو أن المدير كان يريد منهم أن يستظهروا دروس العلوم كما يستظهرون الأناشيد الوطنية. وهو يشهد بأن المعلمين الفلسطينيين كانوا مخلصين في التعليم، وأنه وزملاءه كانوا يحبونهم ويعدونهم كآبائهم. وكان شاعرنا كما يقول من المتقدمين في اللغة العربية وأنه كان يُنتَدب للمباريات الخطابية والشعرية.

وفي حديث أبي سماك عن أسرته الأولى يقول بأنها كانت مؤلفة من والديه وأربعة أشقاء وشقيقتين، وأن والديه كانا متعبدينِ تقيِّينِ، وأن أباه كان عسكرياً زمن العثمانيين، وأنه قد ابتنى لهم داراً في جنين على طريق حيفا.

وللشاعر عَمَّان شقيقان لوالده، وستة أعمام وثلاث عمّات من زوجات أخريات لجده المزواج، ولم يبق منهم على قيد الحياة حتى كتابة شاعرنا مذكراته سوى عمه الحاج محمد سعيد.

وقد اعترف الشاعر بأن والده قد قاسى كثيراً في تعليمه وتعليم أشقائه وشقيقاته نظراً لضيق ذات يده. وقد بدأ برهان الدين نظم الشعر في المرحلة الابتدائية وأن أول بيتين نظمهما وهو في هذه المرحلة قوله:

أَحمامة الوادي إليَّ تعالي وترنحي نشوى هوى بدلالِ

وتلطفي فوق الغصون ورجعي وترنـحي بعذوبـة وجـلال

وكان برهان الدين مولعاً بقراءة ديوان الحماسة لأبي تمام، وكتاب فتوح البلدان، وقصص عنترة، وتغريبة بني هلال، وسيف بن ذي يزن، وصلاح الدين. وما أن بلغ المرحلة الثانوية حتى كان شغفه بالعربية ملتهباً. ولذلك فهو يحذرنا من إهمال لغتنا الأم وعدم الاهتمام بتعليمها في المرحلة الابتدائية التي هي أساس مراحل التعليم كلها والتي تصقل وتكون شخصية الطفل العربي، كما أنه يحذرنا من الزواج بالأجنبيات اللواتي لا يستطعن الإسهام في تعليم أبنائهن اللغة الأم التي هي لغة القرآن الكريم.

وبعد أن أنهى شاعرنا دراسته في المرحلة الابتدائية بقي محروماً من مواصلة تعليمه لضيق ذات اليد ولأنه لم يكن في جنين مدرسة ثانوية ولأن والده كان مشغولاً بالإنفاق على إخوته الذين يكبرونه في السن. وبعد أن أمضى عاماً قبل أن يواصل دراسته أقام الدنيا وأقعدها حتى التحق بثانوية النجاح في نابلس بعد أن تعهد المجلس الإسلامي الأعلى في القدس بتسديد نصف قسطه المدرسي. وقد سلخ من عمره ثلاث سنوات في هذه المدرسة العظيمة التي كان لها أثر عظيم في تعليمه الثانوي. وقد تعرف في هذه المدرسة على بعض الطلاب العرب من غير فلسطين منهم الطيب بَنُّونَهْ وأخوه مهدي ومحمد الفاسي من المغرب.

وكان من معلميه عدد كبير من أعلام النهضة منهم الشيخ عبدالحميد السائح والدكتور عمر فروخ من لبنان، وقدري طوقان، وأكرم كمال، وعز الدين كمال، وعلي نويهض، ونعيم خوري، ومدير المدرسة أديب مهيار من فلسطين.

وكانت أكثر دروسهم في هذه المدرسة بالإنجليزية ولا سيما في الصفين الأخيرين لأنها كانت تعد طلابها للالتحاق بالجامعة الأمريكية في بيروت.

وفي آخر سنة قضاها الشاعر في مدرسة النجاح انتدبته الإدارة لإلقاء كلمة الخريجين بعد أن سلمته الكلمة التي سيلقيها والتي لم يتقيد بها حيث كتب نص كلمة بأسلوبه ومزج بينه وبين الكلمة التي تسلمها من الإدارة وعزز خطابه هذا بقصيدة طويلة مطلعها:

ما عاد شيءٌ من الدنيا يواسينا إلا دماءَ العِدا تروي مواضينا

وقد غضبت عليه إدارة المدرسة ومزقت شهادته، فبكى شاعرنا أسفاً على ذلك، وترحم عليها لأنها تمثل خلاصة عمره، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يدعو لمدرسته بالحفظ والبقاء، وأن يسامح الله الإدارة وأن يغفر لها ما اقترفته من تصرف انتقدها على اجتراحه كثيرون.

وقد أعاد برهان الدين العبوشي سنته الثانوية الأخيرة في الكلية الوطنية في الشويفات بلبنان. وبانتهاء العام الدراسي عاد إلى جنين يحمل شهادته الثانوية وبقلاوة "الصمدي والعريسي".

ولم يلبث شاعرنا أن عاد إلى لبنان للالتحاق بالجامعة الأمريكية منتسباً خارجياً. ولم يكن أبو سماك راضياً عن الجامعة ورسالتها لأنها وكرٌ للعملاء ضد العرب، ومؤسسة استعمارية مؤيدة للصهيونية ومخططاتها. وبعد أن أنهى برهان الدين العبوشي سنته الأولى في الجامعة الأمريكية ببيروت أصيب بنكبة دراسية جديدة حرمته من إتمام دراسته الجامعية حيث أعلمته إدارة الجامعة بأنه مُكْمِلٌ في مادة التاريخ مع أنهم أعلموه خطَّياً بأنه مكمل في درس العلوم العامة لا التاريخ. وكان قَصْد الإدارة من ذلك هو إرباكه والانتقام منه.

وبعد أن يأس الشاعر من إتمام دراسته الجامعية أقبل على تعليم نفسه فراح يلتهم الكتب التهاماً، وأقبل على العمل في التدريس فدرَّس في المدارس التي كان يعمل فيها أصحاب الشهادات من خريجي الجامعات. وكان عزاؤه في ذلك التراث الأدبي الذي خلفه حيث ألف أربعة دواوين شعرية هي على التوالي:

1- جبل النار: ويتضمن قصائد ألفها في فلسطين والعراق ومصر وقصائد أخرى في موضوعات متفرقة. وقد طبع في مطبعة الشركة الإسلامية للطباعة والنشر المحدودة في بغداد عام 1956.

2- ديوان النيازك: ويشتمل على عدد من القصائد التي نظمها في نكبة فلسطين، وقصائد أخرى نظمها بعد النكبة وقد طبع هذا الديوان في مطبعة دار البصري ببغداد في 1968/1/25.

3- ديوان إلى متى: وقد احتوى هذا الديوان على سبع عشرة قصيدة في موضوعات متفرقة، وطبع لأول مرة في مطبعة المعارف ببغداد سنة 1972م.

4- ديوان جنود السماء: وفي هذا الديوان ست وثلاثون قصيدة في موضوعات متفرقة. وقد قامت بإصداره لجنة التراث الأدبي الفلسطيني في الكويت والتي تشرَّفتُ برآستها عام 1985، وقد عاونني على إصداره الإخوة الأساتذة الدكتور حلمي الزواتي والدكتور حسين أبو شنب والأستاذ شهاب محمد جزاهم الله خير الجزاء.

وقد عُنيَ شاعرنا برهان الدين العبوشي تغمده الله بواسع رحمته بالشعر المسرحي، فكتب أربع مسرحيات شعرية استوحى ثلاثاً منها من مأساة فلسطين فكان من كبار الشعراء العرب الذين أسهموا في النهوض بالمسرح الشعري والذي كان فضل النهوض به يرجع إلى أمير الشعراء أحمد شوقي.

أما مسرحيات شاعرنا برهان الدين فهي:

أولاً: مسرحية "وطن شهيد" التي طبعت لأول مرة في المطبعة الاقتصادية بالقدس الشريف عام 1947م.

ثانياً: مسرحية "شيخ الأندلس" وقد طبعت للمرة الأولى في مطابع دار الكشاف ببيروت عام 1949 وللمرة الثانية في مؤسسة فلسطين للثقافة عام 2006م.

ثالثاً: مسرحية "عرب القادسية" وقد صدرت لأول مرة عن مطبعة المعارف ببغداد عام 1951م.

رابعاً: مسرحية "الفداء" وقد طبعت لأول مرة في مطبعة البصري ببغداد سنة 1968م.

ولشدة كره شاعرنا للإنجليز فإنه على الرغم من تعطله عن العمل عاماً كاملاً فإنه كان يدعو الله في سره ألا يكتب الله عليه أن يصبح موظفاً في حكومة الانتداب. وقد استجاب الله دعاءه.

وظل منكباً على القراءة إلى أن سُمح له بالتمرن في البنك العربي في القدس تمهيداً لتوظيفه في أية مؤسسة عربية مستقلة أخرى. وبعد مشاركته في تأبين الأمير شكيب أرسلان في سينما الحمراء في يافا عُيِّن في البنك العربي في طبريّا أميناً للصندوق براتب متواضع ثم نقل إلى القدس لخلاف وقع

بينه وبين مدير الفرع الذي يعمل فيه بطبريا السيد صدقي الطبري وقبيل نقله إلى القدس استشهد المجاهد الشيخ عزالدين القسام فعرَّج شاعرنا على بيسان ليسهم في تأبين البطل الشهيد.

وفي ثورة عام 1936 نقله أحمد حلمي باشا محاسباً لشركة إنقاذ الأراضي العربية من اليهود في القدس. وأعلنت الهيئة العربية العليا الإضراب العام في فلسطين والذي استمر ستة أشهر، ولم ينته إلا بعد أن أذاع ملوك العرب نداءهم إلى أهل فلسطين لإنهاء إضرابهم وإلقاء سلاحهم ليتوسطوا هم بين الإنجليز وبين أهل فلسطين. وقد خدع الفلسطينيون واستجابوا لنداء الملوك ولكن جهودهم ضاعت هباءً، غير أن ثورتهم تجددت، وعاد الثوار للجبال والوديان، وبدأ الإنجليز يبذرون بذور الفتنة والشك بين العائلات العربية وشجعوا جواسيسهم على قتل الوجهاء الوطنيين لينشغل عرب فلسطين بالثارات. واعتقل الشاعر ومعه الآلاف من زملائه وإخوانه في مزرعة عَكّا وغيرها.

وفر كثيرون إلى مصر وسوريا ولبنان. وبقي المجاهدون وحدهم يقاتلون. وقد أمضى الشاعر وعدد كبير من شباب جنين والجليل عشرة أشهر في معتقل مزرعة عكا بسبب مصرع الحاكم البريطاني المستر أندروس الذي اغتاله بعض الشباب في مدينة الناصرة.

ومن الأعمال الثورية التي قام بها شاعرنا برهان الدين العبوشي مشاركته في نسف جسر السيدة مريم العذراء في القدس. وخطبته في الناس في المسجد الأقصى. وإخفاء إخوانه من الشباب المجاهدين له عن أعين الإنجليز الذين كانوا يطاردونه محاولين اعتقاله. تعرفه على عبد القادر الحسيني لأول مرة في حياته، حيث اصطحبه الشهيد عبد القادر إلى بيته ودلف بعد ذلك معه إلى داخل المسجد الأقصى وارتجل كل منهما خطاباً في الجماهير فانسحب سماحة المفتي وأحمد حلمي باشا وعزة دروزة الذين كانوا في المسجد بعد مجيء المجنونين عبدالقادر وبرهان الدين. وبعد ذلك بأيام قليلة صحبه عبد القادر لزيارة غزة وفيها دخل برهان الدين أحد مساجدها فوجد رجال اللجنة القومية يتناحرون بسبب الزعامة العائلية فعرفهم بنفسه وألقى بعد صلاة الجمعة خطبة ألهبت مشاعر المصلين الذين هموا بمواجهة المدرعات الإنجليزية المتربصة بهم عند أبواب المسجد على الرغم من عدم وجود سلاح معهم، ومنعاً للكارثة عاد العبوشي ليخطب في رواد المسجد موضحاً لهم أن ملاقاة العدو لا تجور إلا إذا كان في أيديهم سلاح يواجهون به عدوهم. وقد استضاف شاعرنا جماعة من

آل الحسيني واحتفت به اللجنة القومية هناك وبعد ذلك بيومين أقامت اللجنة احتفالاً ثورياً في قرية (المسميَّة) فخطب فيهم خطبة ثورية عصماء. وقد حلقت فوق المحتفلين طائرة بريطانية أمطروها برصاصهم، وحرصاً على سلامة الضيف الشاعر حمله بعض شباب اللجنة القومية ووضعوه في سيارة محمود علاء الدين من الرملة وتوجهوا إلى قرية (إدنبة) حيث قضى يومين عند أقرباء عبدالقادر الحسيني.

وبعد أن ملّ شاعرنا المقام ذهب إلى يافا وزار جريدة الدفاع فأعلمه صاحبها إبراهيم الشنطي أن الشرطة جادة في البحث عنه. فتحول الشاعر من يافا إلى الرملة ثم إلى القدس. وتوجه برهان الدين إلى منزل أحمد حلمي باشا ليقترض منه ثلاث جنيهات فلم يستطع لأن أحد ضباط الشرطة العرب كان متربصاً به عند الباب فاقتاده إلى معتقل القشلة الذي بقي فيه يومين نفاه بعدهما الإنجليز إلى عوجا حفير على حدود صحراء سيناء، وقد نفي مع الشاعر إلى عوجا حفير كل من عوني بك عبدالهادي وفخري بك النشاشيبي. وفي معتقل عوجا حفير وجدوا أن عدداً من الزعماء قد سبقوهم منفيين وهم: جمال حميد المحامي، وأكرم زعيتر، وقدري طوقان، وصبحي الخضرا، وراشد الجيوسي، وحسن صدقي الدجاني وغيرهم. وكان بدو منطقة العوجا حفير قد تبرعوا للمنفيين في منطقتهم بقطيع من الغنم يذبحون منه ويأكلون.

وبعد أن نُمي إلى الإنجليز أن البدو ينوون تحرير المنفيين والفرار بهم إلى بعض البلدان المجاورة؛ نقلوهم إلى معتقل صرفند الخراب الذي قال فيه الشاعر برهان الدين:

صـرفندُ معتقـلَ الأسود جـئناكِ نرفُـلُ بالحـديد

بعد المدة التي قضاها الشاعر وعدد كبير من شباب فلسطين وزعمائها معتقلين في عوجا حفير وصرفند الخراب ومزرعة عَكّا أطلق الإنجليز سراحهم ليستريحوا من شغبهم الذي كانوا يقومون به في معتقلاتهم.

وبينما كان العبوشي يقضي بعض أيام الصيف في مصيف حمَّانا في لبنان انتدبتهم حكومة العراق مع مجموعة من رفاقه للتعليم في مدارسه سنة 1939، وكان ذلك بعد اغتيال الملك غازي بقليل.

وكان السراب هو أغرب شيء شهده الشاعر في الصحراء وهو في طريقه إلى بغداد. وكان أول عراقيّ احتفى بشاعرنا هو المرحوم سعيد الحاج ثابت الذي عرفه شاعرنا يوم زار حيفا في وفد كان فيه محمد مهدي كبّة.

وبعد أيام من وصول شاعرنا إلى بغداد عُيِّن معلماً في مدينة العمارة. ولما عرف بعض الطلبة من اليهود أن معلمهم برهان الدين بدأوا يضايقونه، وقد حمل بعض من هاجر منهم إلى فلسطين كراهيتهم له وأخذوا يسألون عنه في جنين. وقد عاد شاعرنا إلى جنين لزيارة أهله سنة 1940م فبدأ الإنجليز يضايقونه ولكنهم تركوه على مضض. وفي سنة 1941 نزل العمارة والتحق بحركة مايو في صدر أبي غريب.

بعد هزيمة مايو 1941 التي لحقت بنوري السعيد وعبدالإله نصَّب الجيش العراقي رشيد عالي الكيلاني رئيساً للوزراء، وأمين زكي قائداً للجيش، والتهب حماس الجماهير في بغداد بسبب المنشورات السرية التي كان يوزعها الثائرون، وزاد حماسها التهاباً بعد نزول الإنجليز في البصرة، وزحف "أبو حنيك" بجنود الفيلق العربي الأردني من الأردن، وتطوع العراقيون للدفاع عن بلادهم ونظموا المقاومة الشعبية ليتفرغ الجيش لقتال الإنجليز. وكلف سماحة مفتي فلسطين الشاعر باستدعاء سيد جاسم حسين الكرادي فاستدعاه شاعرنا، وبعد اجتماعه بالمفتي أخبره السيد جاسم بأن المفتي قد كلفه بتشكيل جماعة للقتال، وأنه قد ألح على المفتي بأن يكون برهان الدين أمين سر هذه الجماعة، ولكن المفتي أبدى اعتراضه زاعماً أن المصلحة تتطلب بقاء برهان الدين في المقر الخلفي ورشح عبدالقادر الحسيني ليكون أميناً لسر هذه الجماعة المقاتلة، واستقر الرأي أخيراً على أن يخرج الشاعر مع عبدالقادر إلى الميدان في 1941/5/27م.

وبعد معارك ضارية استخدم فيها الإنجليز سلاحهم الجوي بكثافة استسلمت بغداد، وانسحب المتطوعون بشرف، وهرب الشاعر وعدد من رفاقه إلى سوريا وهو يحمل وسامين أحدهما في ذراعه والآخر في رجله.

وقد دخلوا سوريا بمعاونة عدد من شيوخ بني شَمَّر الكرماء. وفي مدينة الحسكة السورية تسلمهم الفرنسيون أسرى، وحملوهم إلى دير الزرو وأنزلوهم في قلعتها حيث عولج الشاعر من جراحه. وبعد قليل هرب الشاعر ورفاقه من القلعة ولكن ضابطاً داغستانياً أعادهم إلى القلعة. وفي اليوم التالي حملهم الفرنسيون وأنزلوهم في قلعتها التي لم يلبثوا أن فروا منها.

وفي طريق الشاعر إلى دمشق شاهد في ضاحية الهامة مخلفات المعركة الرهيبة التي دارت بين الفيشيين والديجوليين والإنجليز يلهون ويسكرون في ملاهي دمشق.

بَرِمَ الشاعر من بقائه متخفياً في دمشق دون عمل فتوسطت له جماعة من كرام دمشق فسمحت له دوائر الأمن العام بالسفر إلى الأردن حيث التقى بأخواله في قرية البارحة قرب مدينة إربد. وبعد أيام عاد إلى بيته في جنين وبقي فيه متخفِّياً.

في الثاني والعشرين من كانون أول 1948 وصلت طلائع الإنقاذ إلى جنين ليحل محل جيش الانتداب البريطاني المنسحب من فلسطين على خط التقسيم، وتوزعت كتائبه في قرى بيت قاد، واليامون والمزار وفقوعة وغيرها وكان يقود هذا الجيش فوزي القاوقجي، ومن ضباطه محمد صفا وأديب الشيشكلي وغسان وجميعهم سوريون، وقد أبدوا بسالة فائقة ولم يضع قبل انسحابهم شبر واحد من خط التقسيم الذي التزموا بالوقوف عنده تنفيذاً لأوامر الجامعة العربية ومن وراءها من المستعمرين.

وقد شاهد الشاعر في مقر قيادة القاوقجي ضابطين بريطانيين من الذين يأتمرون بأوامر "أبي حنيك" فعاتب القاوقجي على ذلك، وقال له أمام ضباطه أن الإنجليز أساس البلاء فكيف تجعلهم دواءً؟! فقال له القاوقجي: "إسأل الجامعة التي فرضتهم عليّ." وكان ذلك بحضور المرحوم سليمان طوقان رئيس بلدية نابلس في بيت نسيب الشاعر حسني الحافظ جرار. ولم يكن جيش الإنقاذ يقاتل وحده بل كان أهل فلسطين يقاتلون معه جنباً إلى جنب.

وفي الخامس من نيسان (إبريل) 1948 زحف جيش الإنقاذ على قلعة مشمارها عيبك، وفي الثامن من الشهر ذاته نَعَتْ إذاعة القدس استشهاد الشهيد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل. وكان

بعض ضباط جيش الإنقاذ يسلبون سلاح بعض الشباب الفلسطينيين طمعاً بأثمانها. لقد كان جيش الإنقاذ مدافعاً لا مهاجماً. وفي الخامس عشر من نيسان (إبريل) 1948 فوجيء الفلسطينيون بانسحاب جيش الإنقاذ من المعركة.

وفي 1948/4/23 سقطت حيفا بيد اليهود. وفي التاسع من أيار (مايو) 1948 أُعلنت الهدنة الأولى وفي الخامس عشر من شهر مايو (أيار) انتهى عهد الانتداب البريطاني ورحل آخر مندوب سام بريطاني عنها بعد ذلك بدقيقة، وبدأت دول العالم تتسابق في الاعتراف بقيام دولة الكيان الصهيوني في فلسطين.

وفي الثاني والعشرين من أيار (مايو) 1948 أعلنت إذاعة دمشق أن الملك عبدالله والرئيسين شكري القوتلي وبشارة الخوري، والأمير عبدالإله وعبدالرحمن عزام باشا قد اجتمعوا حول مائدة غداء للتفاهم بعد القطيعة.

أما بعض ضباط جيش الإنقاذ فقد باع بعضهم فراشاً ومواعين كانوا قد استعاروها من أهل جنين كما باعوا أثاث مدرسة الذكور وأدوات الطلاب ومواعينهم كما سمع الشاعر، لا كما رأى. أما الشاعر برهان الدين فقد استطاع استعادة بعض ما استعاروه من بيتهم.

وكان حصيلة خسائر الفلسطينيين في المعارك التي دارت بينهم وبين اليهود قبل إعلان قيام الكيان الصهيوني اثني عشر ألف شهيد وضعف هذا العدد من الجرحى.

أما بالنسبة للأراضي فلم يكن اليهود يملكون من أراضي فلسطين سوى 7% لا غير. أما بقية ما آل إليهم من أرضها فقد بلغ ثلاثة ملايين ومائتي ألف دونم من أراضي الدولة منحةً لهم من سلطات الانتداب.

كما اشترى اليهود ستمائة ألف دونم من أراضي مرج ابن عامر ووادي الحوارث والحولة وسواها من آل كمال سرسق والتيّان وغيرهم من السوريين، وأما ما اشتراه اليهود من أراض من فقراء العرب الفلسطينيين الذين كانوا عاجزين عن دفع الضرائب المفروضة عليها فلم يزد عن مائتين وخمسين ألف دونم وهو ما يساوي ستين ألف فدان مصري.

وقد طارد عملاء الصهاينة شاعرنا أبا سماك بعد هجرته إلى العراق وحاولوا الفتك به لولا أن جماعة من الطلاب البعثيين والقوميين تصدوا للدفاع عنه. وقد حدث ذلك في المدارس التي عمل فيها في بغداد وفي مدرستي الحكومة وفي الثانوية الجعفرية المسائية.

ويكفي الفلسطينيين فخراً أن هتلر قد أشاد ببسالتهم حيث قال في إحدى خطبه: "اتخذوا يا ألمان السوديت من عرب فلسطين قدوة لكم. إنهم يكافحون انجلترا واليهودية العالمية معاً ببسالة خارقة، وليس لهم في الدنيا نصير أو مساعد، أما أنا فإني أمدكم بالمال والسلاح وإن ألمانيا كلها من ورائكم."

وفي التاسع من الشهر السابع عام 1948 انتهت الهدنة الأولى وبدأ العراقيون يقصفون بمدفعيتهم ومعهم الفلسطينيون خطوط العدو وحرَّروا عدداً من القرى، ولكن سقوط مدينتي اللد والرملة بيد العدو بعد أن أخلاها الفيلق الأردني بقليل فانكشفت بذلك عورة الجيش المصري الذي كاد أن يصل إلى يافا. وأُعلنت الهدنة الثانية.

وفي الثلاثين من الشهر التاسع أعلن عن قيام حكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد حلمي باشا. وفي الثامن عشر من نوفمبر سنة 1948 زار جنين الأمير عبدالإله لتفقد الجيش العراقي فألقى الشاعر أمامه بعض الأبيات التي يصور فيها عدم رضا الفلسطينيين عن وقوف الجيش العراقي عند حدود التقسيم.

وفي صيف 1950 اكتسب برهان الدين العبوشي الجنسية العراقية. وقد تزوج وهو في سامراء من عائلة الحافظ الموصلية. وفي سامراء ترعرع طفل الشاعر سماك.

وفي الثالث والعشرين من يوليو، 1952 انفجر بركان الغضب في مصر على يد جيشه الباسل بقيادة جمال عبد الناصر فسقطت الملكية واستقرت الجمهورية، وتبعها الأردن فطار أبو حنيك وعرَّب المغفور له بإذن الله تعالى جلالة الملك الحسين قيادة الجيش الأردني. وفي 1958/7/14 قامت الثورة في بغداد بقيادة عبدالكريم قاسم. وفي عام 1968 تسلم البعثيون زمام الحكم في بغداد بقيادة أحمد حسن البكر دون أن يسفكوا دماً كما أمَّموا النفط في العراق ومنحوا الأكراد حقهم في الحكم

الذاتي في منطقة كردستان العراقية. وبعد قيام النكسة تحول اللاجئون الفلسطينيون إلى كتائب مقاتلة من الفدائيين. وفي شهر آب اللهاب من سنة 1969 حرق اليهود المسجد الأقصى، واختار الله جمال عبدالناصر إلى جواره بعد قيادته لحرب الاستنزاف ثلاث سنوات أعد فيها الجيش لتحرير سيناء. وفي السادس من أكتوبر 1973 قام أنور السادات بإصدار أوامر للعبور، واستطاع الجيش المصري الباسل تحطيم خط بارليف ولكن التدخل الأمريكي اضطر أنور السادات وقيادته من تحويل هذه الحرب من حرب تحرير إلى حرب تحريك! انتهت بارتباط مصر بمعاهدة كامب ديفيد التي ربطت مصر بالكيان الصهيوني ولا تزال.

وفي 1975/6/31 تخرج نجل الشاعر الأكبر سماك من كلية العلوم ببغداد وبعد ذلك بشهر عقد قرانه على زميلته راجحة بنت العميد المتقاعد محمود محمد نوري النصار الذي أسهم في معركة جنين سنة 1948، وقد أهدت راجحة لزوجها ولدها الأول عمر، فرقاه الشاعر بالرقية التي رقى بها الرسول صلى الله عليه وسلم حفيديه الحسن والحسين. أما ولده حسن فلم يكن قد تزوج حتى كتابة والده مذكراته.

أما رأي شاعرنا في مؤتمر كامب ديفيد فإنه يلخصه بأنه مؤامرة، وأن نتيجته مخزية للعرب، وأن الشاعر لا يقتنع إلا بدك إسرائيل وإزالتها. وهو يقول في ذلك:

فلسطين من حيفا إلى النهر موطني تقر بها عيني ويخفرها قلبي

ويقول:

مَنْ كان يطمع في الخلود ففي فلسطين الخلود

أبوابها الفولاذ تفتحها المدافع والجنود

في قلبها سكن الشهيد وبالشهيد غداً تعود

في 1948/11/18 زار الأمير عبدالإله جنين لتفقد الجيش العراقي فَكُلِّفَ الشاعر بإلقاء أبيات يعبر فيها بأدب وحذر عن سخطه وسخط الفلسطينيين وعدم اقتناعهم بوقوف الجيش العراقي عند خطوط حدود التقسيم.

ومما ورد في قصيدته التي رحب فيها بزيارة الأمير قوله:

زرتنا والناس في كَربٍ شديدِ حبذا لو زرت في اليوم السعيدِ

يا وصي الفيصلِ الماضي ألا سرت بالجيش إلى خلف الحدودِ

حدُّنا البحر فلم نبقى هنا أطلق الجيش يُطَوِّحُ باليهودِ

وفي طريق الأمير عبدالله بن الحسين مؤسس إمارة شرقي الأردن إلى لندن مرّ بجنين فحضر الشيخ أسعد الشقيري للسلام عليه ومعه شاعرنا برهان الدين العبوشي على الرغم من صغر سنه ليثبت للأمير أن آل العبوشي ليسوا ضده كما يصورهم منافسوهم الذين هم في الوقت نفسه أعداء للشيخ الشقيري من أيام العثمانيين.

فلما دخل الشاعر الخيمة رأى الأمير محاطاً بجماعة من وجهاء جنين وبثلة من الضباط الإنجليز، فقدَّمه الشقيري إلى الأمير قائلاً: أقدِّم إليك هذه الغضبة، فصافح الأمير الشاعر وهو واقف اهتماماً بصديقه الشيخ وهو يلاحظ صغر سنِّ الشاعر. ولكن شاعرنا الجريء لم يَنْسَ أن يهتبل هذه الفرصة فبادر الأمير قائلاً والجميع وقوف: "يا سمو الأمير أنت سليل بني هاشم الذين منهم نبينا محمد رسول الله فكيف تتخذ هؤلاء الإنجليز بطانة وحراساً وهم الذين باعوا أباك الشريف؟" واحمر وجه الأمير عبدالله، ووجد نفسه مضطراً لأن يرد على الشاعر بقوله: "صحيح، صحيح". أما الحاضرون الذين شهدوا هذه الواقعة فلم يجدوا سوى أن ينعتوا شاعرنا بالجنون.

وقد هال الشاعر ما وقع من خلاف بين المملكة العربية السعودية والمملكة اليمنية وزحف الجيش اليمني على الأراضي السعودية واحتلاله وادي الدواسر، فأرسل إلى كل من الملكين نسخة قصيدةً يدعوهما فيها إلى الاتحاد. ومن أبياتها:

ملكَ الحجاز وعاهلَ اليمن اللهُ صانكما من الوَهَنِ
وأعدَّ في جيشيكُما ظَفراً وحياكما بالعز والمِنن
لا تُغضِبا في الحرب ربكما فالله عن حربيكما لغني
الإنجليز رمت صفوفَكما كي يشغلوا الزيدي عن عدن

فرد عليه الإمام يحيى حميد الدين برسالة يطمئنه فيها بأن ما تناهى إلى سمعه ليس إلا كذب وافتراء، فلا زحف ولا تقدم، ولكن كان هناك إخلاء بعض الحدود خيفة من التحاكِّ الذي يُخشى أن يؤدي إلى الاشتباك. وأن الحالة بينه وبين أخيه الملك ابن السعود على خير حال.

وأخيراً فقد تصدى الشاعر للرد على أنه لم يقل الشعر إلا في الوطنية والثورة بقوله: "أأضع الوهن بدل الوطن، والعورة بدل الثورة؟!"

وفي عام 1990 منح الرئيس عرفات وسام القدس للثقافة والآداب والفنون في حفل أقيم له في بغداد. لقد تمنى شاعرنا الشهادة ولكنها لم تكتب له. وقد ذكر الموت كثيراً في شعره ومن ذلك قوله:

وأراني مثل ضرغام هوى لا أرى في الكون من يسأل عني

وبعد؛ فإنه لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جامعة البتراء وإدارتها الموقرة على هذه المبادرة التي كرمت فيها شاعرنا أبا سماك وأتاحت لي الفرصة للمشاركة في تكريمه. وإن كان ما تركه من تراث أدبي هو خير ما يكرمه عبر الأجيال القادمة من أبناء فلسطين وإخوانهم العرب.

لقد لقي شاعرنا برهان الدين العبوشي وجه ربه في الثامن من فبراير (شباط)، 1995 فعليه شآبيب الرحمة تهمي دون انقطاع. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأفق الجديد وأمين شنار
بين الواقع والمثال

ألقى الدكتور رجا سمرين هذه الشهادة في ندوة علمية تكريمية احتفاءً بالأديب والإعلامي الراحل أمين شنار. أقيم هذا الاحتفال في رابطة الكتاب الأردنيين في السابع عشر من كانون أول 2005. أدار الندوة الدكتور عبدالفتاح النجار. وفيما يلي الكلمة التي ألقاها الدكتور رجا سمرين بهذه المناسبة:

باسم الله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على صاحب البيان الأعظم، والأدب الأقوم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد؛

فإن أول ما يستوقف الباحث الراغب في الحديث عن مجلة الأفق الجديد، ومدير تحريرها المرحوم بإذنه تعالى الشاعر والأديب "أمين شنّار" هو هذا الاسم الذي أطلق على هذه المجلة الأدبية التي قضت نحبها وهي ما تزال بُرعماً يتفتح ويعبق بأريجه بين المجلات الأدبية العربية في تلك الحقبة من ستينات القرن العشرين، وهي حقبة امتازت بأن أمتنا العربية كلها كانت تتطلع فيها بشغف بالغ إلى آفاق جديدة لا تغلفها غيوم الهزائم وسحائب النكبات التي تلبدت بها آفاق الوطن العربي الكبير آنذاك.

وكان أمين شنار الذي كُلف بالإشراف على إدارة هذه المجلة من قبل دار المنار للصحافة على أتم الوعي بأمرين، كان يدرك إدراكاً تاماً أنه لا بد له في صنعهما لأنهما من صنع القدر الذي لا يرد والقضاء الذي لا يمكن أن يقاومه أو يعترض على قراراته. أما هذان الأمران؛ **فأولهما:** هو الواقع الذي كانت تعيشه أمته. **وثانيهما:** هو المثال الذي تتطلع إليه.

وبين الواقع الذي كان يقيد أمين شنار وأبناء جيله بسلاسله وأغلاله وما تتيحه هذ السلاسل وتلك الأغلال من وسائل التعبير عن ذلك الواقع المرير الذي كان ذلك الجيل غائصاً في أوحاله... بين

هذا الواقع وذلك المثال الذي يحلم أمين شنار وأبناء جيله بالوصول إليه ويتشوقون إلى خلقه متطلعين إليه من خلال آفاق أكثر صفاء؛ عاشت الأفق الجديد عمرها القصير. وألبير أديب في الأديب، وسهيل إدريس في الآداب. ولذلك فإن الأثر الذي تركته مجلة الأفق الجديد في الأدب العربي لا يمكن أن يتصدى لإنكاره إلا جاحد أو مكابر على الرغم من أنها لم تعمر كأخواتها السابقات.

وقد انتقل عدد كبير من الذين زينوا صفحات الأفق الجديد بإبداعاتهم إلى بارئهم، من أمثال: أكرم زعيتر، وأحمد عناني، ولطفي ملحس، وحمدي حنبلي، والشهيد ماجد أبو شرار، وروكس بن زائد العزيزي، وأحمد أبو عرقوب، وحسني فريز، وعبدالرحيم عمر، وأمين فارس ملحس، ومحمود سيف الدين الإيراني، ومصطفى زيد الكيلاني وغيرهم. وما زال عدد كبير منهم أطال الله بقاءهم، ومد في آجالهم بين ظهرانينا يملؤون الساحة الأدبية العربية بما تدبجه أقلامهم من إبداعات في المجالات الأدبية المتعددة.

وكنت كلما ألتقيت المرحوم أمين شنار في مكتبه في القدس برفقة الأستاذ القاص محمد أبو شلباية لا يكف عن الحديث عن المنزلة التي يحلم بأن تبلغها مجلة الأفق الجديد على الرغم من ضعف إمكاناتها المادية التي لم تكن قادرة على الوفاء حتى بطباعتها.

وإذا تتبعنا كلمة أمين شنار التي كانت تتصدر كل عدد من أعدادها بصفته مديراً لها نجد أن أربع قضايا قد استأثرت باهتمامه ونذر نفسه وقلمه للدعوة إلى تحقيقها.

أما القضية الأولى: فهي قضية تحرير فلسطين واسترداد ما اغتصب منها في نكبة عام 1948. وفي هذه القضية يقول أمين شنار في كلمة العدد الثالث عشر من الأفق الجديد رابطاً بين التحرير وقدوم فصل الربيع: "أجل يا ربيع لقد وقفنا أعواماً على أطلال النكبة، ولكنا عرفنا كيف نستلهم الألم العبقري أملاً عبقرياً لا يني يقاسمنا كل نبضة عرق، ويشاركنا كل خفقة قلب، يحيا بنا ونحيا به على موعد منتظر. ولن نتخلف عن موعدنا أبداً. نلقاك يا ربيع شباباً متجدداً يحرق ليل النكبة وقوداً على طريق الفجر، ونريدك سماءً ضحوكاً تظلنا غداً على ربى فلسطين في موسم عز وانتصار."

ويقول مستنهضاً عزائم المسلمين لتحرير فلسطين مستلهماً طواف الحجيج بالبيت العتيق وذلك في العدد السادس عشر الصادر في 11 ذي الحجة 1381 هـ الموافق 15 أيار 1962: "جموع الحجيج تطوف بالبيت العتيق، وعلى جبل عرفات يراق دم الضحايا، وشعاب مكة ووديانها ترتج بالنداء لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. وفي أولى القبلتين في فلسطين ظمأ لهيف أسوان، وجرح ناغر مستيقظ يصيح، ويد ممتدة تسائل عن عطاء... عن فداء. ويلتقي هذا العام موسم الحج في مكة بذكرى النكبة في فلسطين فترتسم في مرآة الوجدان معاً الصورتان: صورة الملايين التي أمت مهبط الوحي وصورة المشردين الذين مزقتهم براثن البغي." "ويطرق أسماعنا هذا العام النداءان: واحد في مكة يلبي، وثان في بيت المقدس يستغيث... ألم يأن لنا أن ندرك أن في نداء مكة التي تلبي تاريخاً لمستقبل فلسطين التي تستغيث؟!"

وأما القضية الثانية: فتتمثل في محاربة أمين شنار لأدب الجنس الذي كان رائجاً في تلك الحقبة والذي يقول عنه في كلمته التي تصدرت العدد الرابع عشر من المجلة بأنه: "أدب مشبوه يدغدع الحواس، ويخدر الوجدان، والذي ساق إليه القراء بكل عوامل المناخ الفاسد لأنه غذاء سهل الهضم ميسور المنال لا يقدرون عواقبه. وكُتّاب الأصالة والرسالة والإبداع والذين هم منذ البدء أصحاب الدفة، وسدنة الكلمة، ومؤرخو الوجدان حائرون تكاد تسلبهم الهزيمة معنى الإصرار ومعنى الثبات.. أما أدباء السوق فمرصودون بيوم تتكشف فيه الأقنعة تحت فيض من نور لا بدّ لإشراقته أن تطلّ."

وأما القضية الثالثة: التي تبناها أمين شنار ودعا إلى إخراجها إلى حيز الوجود فهي تأسيس رابطة للأدباء الأردنيين وإنشاء نادٍ للقصة، ونادٍ آخر للشعر.

وأما القضية الرابعة: التي عني بها أمين شنار فهي تشجيع المواهب الجديدة، ونشر مقتطفات من إبداعات أصحاب هذه المواهب، والتعليق عليها بموضوعية وحنوّ يقويان من عزيمة صاحب الموهبة ويحفزانه على مواصلة الكتابة والتعبير.

وقد حرص أمين شنار على ألا تظل الأفق الجديد متسمة ببعدها الوطني بل عمل جاهداً على أن يجعل لها بعداً قومياً كغيرها من المجلات الأدبية التي سبقتها في الظهور.

ولهذا فإن الأفق الجديد قد استقطبت ومنذ أعدادها الأولى عدداً من الأقلام العربية من العراق وسوريا ومصر وقطر. ومن الكتاب والشعراء العرب الذين أسهموا بنشر مقالاتهم وقصائدهم فيها: الدكتور وجيه زين العابدين ووليد الأعظمي وعبدالقادر الناصري وخالد الشواف وعبدالرحمن الرشودي من العراق، وعمر بهاء الدين الأميري وصدقي البيك من سوريا، والدكتور نجيب الكيلاني من مصر، وحسني حسن علي من قطر.

لقد نجح أمين شنار في أداء رسالته لأنه لم يكن مصاباً بداء الشللية. ولأنه كان يمقت المافيات التي تتحكم بوسائل الإعلام ويحتقر زعماءها الذين يفرضون وبمنتهى الإصرار والوقاحة على كتّاب الأصالة كل ما يبتكرونه من وسائل الإحباط والتعتيم.

وبعد، فالحديث عن أمين شنار والدور الذي نهض به في خدمة الأدب والثقافة والفكر لا يمكن أن يختزل في بضع صفحات. لذلك فإنني أهيب برابطة الكتاب الأردنيين أن تشكل لجنة تعنى بجمع تراثه والكشف عما فيه من كنوز وذخائر لا ينبغي أن تظل محجوبة عن الجماهير.

وأخيراً، فإنه لا يسعني إلا أن أعبر عن اعتزازي بالانتماء إلى ذلك الرعيل الذي أسهم في بناء مدرسة الأفق الجديد على قدر استطاعته، كما أرجو أن يكون في هذه الشهادة شيء من الإنصاف الذي تستحقه مجلة الأفق الجديد ومدير تحريرها المرحوم أمين شنار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

مثقف عبقري نادر المثال

هذه شهادة بقلم الدكتور رجا سمرين قدمها في رحيل صديقه الأديب والشاعر الأستاذ "محمد يوسف" وقد نُشرت في إحدى الصحف عام 2009.

نعم؛ أقولها وبصدق بأن محمد يوسف مثقف عبقري نادر المثال. أقول ذلك غير متأثر بتلك الصداقة المتينة التي توثقت عراها بالراحل الكبير، والتي امتدت منه إلى نجليه الشابين الإعلاميين أحمد وأيمن مدَّ الله في عمريهما وجعلهما خير خلف لخير سلف.

منذ اللقاء الأول الذي لبى فيه محمد يوسف دعوة الهيئة الإدارية للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين –فرع الكويت– والذي كنت عضواً دائماً في هيئته الإدارية، وإلى أن انتقل إلى جوار ربه وهو يحرص على المشاركة في كل فعالية من فعاليات ذلك الاتحاد. وما ذلك إلا لأن فلسطين وقضيتها كانت في مقدمة الأعباء التي حملها على كاهله، ناهيك عن اهتماماته بالقضايا القومية والإنسانية الأخرى. وفضلاً عن ذلك فقد كان من المثقفين النادرين الذين توصلوا إلى معرفة المعنى الدقيق من المصطلحين الملتبسين: العولمة، والحداثة اللذين برزا أكثر من غيرهما في العقدين الأخيرين من هذا الزمن الذي لم تر فيه الإنسانية أشد رداءة وقماءة منهما، ولا أكثر انحرافاً عن جادة المثل والقيم الإنسانية والسلام العالمي الذي هو هدف البشرية الأول عبر التاريخ.

واحتسب أنني مطالب بتدعيم ما أراه في محمد يوسف وتراثه الجم والمتنوع حتى لا يكون قولي فيه قولاً مطلقاً على عواهنه.

عبر أكثر من ثلاثة عقود أعقبت تخرج محمد يوسف من قسم اللغة الإنجليزية بجامعة عين شمس عام 1964 صدر له إحدى عشرة مجموعة شعرية وخمسة مؤلفات نثرية، وترجم ثلاثة كتب وأنتج مسرحيتين، هذا بالإضافة إلى أن لمحمد يوسف مجموعتين شعريتين تنتظران الطبع والخروج إلى النور. وقد ترجمت مجموعة من قصائد محمد يوسف إلى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية. وصدر

عن تجربته الشعرية كتابان، وكتب عنها أربعة عشر ناقداً وشاعراً في مقدمتهم: رجاء النقاش، وفاروق شوشة، والدكتور حسن فتح الباب، وفؤاد حجازي.

وقد حصل محمد يوسف على جائزة الأدباء الشبان في مؤتمر الزقازيق عام 1969، وعلى المركز الثاني في ديوانه "عزف منفرد أمام مدخل الحديقة" وعلى المركز الأول في مسابقة الثقافة الجماهيرية للشعر عام 1971م. وقد شارك في مهرجانات عديدة من أهمها مهرجان المربد السنوي في بغداد.

وقد انتسب – رحمه الله– إلى عدد من الاتحادات والروابط منها: اتحاد الكتاب المصريين، واتحاد الصحفيين العرب، واتحاد الأدباء العرب، والرابطة العالمية للصحفيين. وإلى جانب عمله التربوي في الكويت كان مديراً لتحرير مجلة "التقدم العلمي".

وقد كان محمد يوسف واحداً من كتاب جيل الستينيات الذين شهدوا دراما النكسة عام 1967 وعاشوا تداعياتها.

وقد تجذرت رؤيته في كتاباته الشعرية والنثرية حول التركيز على إنسانية الإنسان لتمكينه من مواجهة الصراع الجيو–سياسي في غابة الوجود والأقنعة.

كما يتميز شعره بالذات بتكريس رؤيته لتمجيد قيم الحرية والحب والخير والجمال والسخط على الطغاة والمستغلين، وباللمسة الإنسانية التي لا تخلو منها تجربة واحدة من تجاربه الشعرية.

ومحمد يوسف التربوي يدعونا إلى ضرورة الربط بين التربية الحديثة وبين الخيال العلمي. وانطلاقاً من هذا الطرح فقد أهاب بخبراء التربية إلى تطويع مناهج العلوم المتكاملة التي تشمل الكيمياء والفيزياء والأحياء والرياضيات ومناهج اللغات وذلك من أجل توفير أرضية مشتركة توضح القواسم الموجودة في القرية الالكترونية بين العلم والتكنولوجيا ذات القوانين الصارمة والخيال المتميز بالرحابة والمرونة.

وحرصاً من محمد يوسف على الإنسان الذي يعزل نفسه في القرن الحادي والعشرين اجتماعياً ليتفرغ للكمبيوتر والانترنت، أو الإنسان المهووس بتطبيقات الهندسة الوراثية، أو المرعوب من الروبوت

الذكي فإنه يرى أن هذا الإنسان في أمس الحاجة إلى جهود واجتهادات علماء النفس لإنقاذه من الفوبيا الناجمة عن كل ذلك، حتى لا ينعزل اجتماعياً، ولا ينكمش إبداعياً، ولا يتدهور إنسانياً.

وقد تساءل محمد يوسف، على سبيل المثال، عن الفوائد التي يمكن أن تجنيها الإنسانية في حال استنساخها لشخصيات مثل شخصية دراكولا أو فرانكشتاين، أو إيفان الرهيب، أو هتلر. وكيف يمكن مواجهة هؤلاء لو أنهم عقدوا اجتماعاً مشتركاً ليقرروا فيه التخلص من "أغبياء العالم" استناداً إلى ما توافر لديهم من الإحصائيات والبيانات؟! وما هي الجدوى التي ممكن أن تعود على العالم في حالة وجود نسخ من شخصيات مثل مارادونا، ومادونا، ومايكل جاكسون، وإليزابيث تايلور، وكليوباترة، وألفيس برسلي، وأمثالهم من المبدعين؟! وهل يمكن تصور الأضرار التي يمكن أن تلحق بمجالات الفن والكتابة والأدب وغير ذلك من تجليات البوح الإنساني الشفاف في حالة استنساخ مثل هؤلاء؟! أما فيما يتعلق بالعولمة فقد أدرك محمد يوسف أن العولمة ليست سوى الأمركة وأن الأمركة هي العولمة. وأن غايتها تنحصر في تحويل الإنسان إلى حيوان منتج ومستهلك في آن واحد، وأن أكبر دعاتها هو: كاهن البؤر الملتهبة الألماني الأمريكي اليهودي الميترنخي البسماركي الشايلوكي "هنري كيسنجر" الذي يدّعي كذباً أنه لا يمكن تحقيق الاستقرار عن طريق القوة، في الوقت الذي نرى فيه أنه قد تمكن من تفكيك أمن الكرة الأرضية عن طريق فرط المنظومة الاشتراكية. وأنه استطاع إغواء الأيدولوجيين المرتدين المرتخين من أمثال: ميخائيل غورباتشوف بتفاحة البراجماتية فتحوّل من داعية للبروسترايكا والجلاسنوست (إعادة الهيكلة والبناء والمفاتحة والانكشاف) إلى لاعب سيرك غير محترم يروج للبيتزا عن طريق الإعلان مقابل مائة ألف من الدولارات!

وقد اعتمدت أمريكا كما يقول محمد يوسف في دعوتها للعولمة كما تفهمها على عدد من القيم السامية مثل: الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية والتنوع وحق الاختلاف وقبول الآخر. وقد أثبتت الوقائع أن أمريكا كانت أول من انتهك هذه القيم بمجرد إحساسها بتعارض أي منها مع مصالحها. وقد كرست أمريكا بموقفها البراجماتي هذا بقاء العالم منقسماً إلى قسمين: شمال غني يلعب بالبيضة والحجر، وجنوب مُعدم لا يملك قوت يومه يعيش رهين محبسين هما: ديكتاتورية الحاكم المحلي، ودكتاتورية الحاكم العالمي.

أما موقف محمد يوسف الشاعر من الطغاة وجنرالات الأوسمة الذين لا يفتأون ينعقون كالأغربة التي لا تبشر إلا بالخراب، فإن خير ما يصوره هو قصيدة "استفتاح" التي وجهها إلى وألقاها في الحفل الذي أقيم لتكريمي في الثامن والعشرين من إبريل 1989 في الكويت بمناسبة بلوغي السن القانونية التي تقضي بإنهاء خدمتي في تلك البلاد.

بدأ شاعرنا قصيدته بالحديث عن الوحدة العربية التي كان يحلم بها مع أبناء جيله على الرغم من أن الطريق إليها مزروع بالألغام التي هي بمثابة ذئاب الأمة وخراتيتها وتيوسها:

قالوا نُدشنُ وحدةً في المشمش

قلت: "اختشوا"

قالوا: "اختشي"

وأدرت ظهري

والطريق ملغمٌ

ذئبٌ، وخرتيتٌ، وتَيْس،

وأنا أذوبُ بنارِ عشقي

رائدي في العشق قيسُ

ولكنه على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من انتشاء الطغاة بدماء العاملين من أجلها يؤمن بحتمية قيامها وتحقيقها وأن هؤلاء الطغاة سائرون حتما إلى مصيرهم الأطرش:

وصرخت يا عَلَمَ العروبة

كلُّ ذئبٍ ينتشي

بدم العروبة

كل خرتيت يسير

إلى المصير الأطرش

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى توجيه خطابه إليّ علماً منه بأنني توأمه في المعاناة وفي المنافي المعتمة والحقد على الطغيان والطغاة:

أأذيع سراً يا رجا سمرين

يا صوتي المشاكس في المنافي المعتمة

وأقول إن الأنظمة

لا تحتفي إلا بجنرال غرابٍ

ثم جنرال يبشر بالخرابِ

وتحتفي بالأوسمة

أما القضية

فاقرأ عليها الفاتحة

والطم بها خديك

واخصِ البندقية

فأنا شظية

وكذاك أنت

فهل ستسألني لماذا؟

الحلو لابس شفتشي؟ "لأَّه اختشي"

ثم يتساءل محمد يوسف عما إذا كان قد اقترف زمن انتصار الغلابة وعشاق الحرية على الطغاة، وبخاصة بعد أن انتفض أطفال فلسطين عليهم وعلى المحتلين:

يا هل ترى

يأتي زمان فيه يرتفع الغلابة

والعاشقون ذوو الصبابة

وأنا وأنت وكل من يفدي فلسطين التي

صبرت على الإجهاض

وانتفضت وزانت نفسها بحجارة

تعلوا على الأنقاض؟!

أأذيع سراً يا رجا سمرين

لكن "إوع تزعل"

إنما الأعمال بالنيات

هل صدقت نوايا أمة كانت تراهن

ثم ترهن حلمها في المشمش؟!

ويمضي الشاعر في تساؤلاته عن السبل التي يمكن أن تقنع طغاة أمته بأن الخيار الصحيح لتحقيق النصر إنما ينحصر في تبني "خيار البندقية" وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة:

كيف السبيل إلى "خيار البندقية"؟!

أنت مثلي فاحفر الصخر المدبب وانبشِ

يا هل ترى في الصخر ماءٌ أو "إشي"؟

وفي ختام القصيدة يؤكد لنا محمد يوسف بحتمية انتصار أطفال الحجارة على المتخاذلين المُسَوِّفين من الحكام الطغاة:

ياعمُّ "مهلاً" قال حُلمي

الشمس طالعةٌ من الحجر الصدوق

أما تراها؟ "فاختشي"

أومأتُ: يا حجراً صدقت

غداً تشجُّ رؤوس أهل المشمش

وبعد، فقد أدرك الإعلاميون العاملون في إذاعة الكويت تلك التوأمة في الاتجاهات التي كانت تجمع بيني وبين محمد يوسف فاستضافونا معاً في برامجهم الأدبية التي يقدمونها في الإذاعة عدة سنوات، أذكر منها حلقة أدارها المذيع فهد حمود، وكانت عن مفهوم الحداثة، وحلقتين عن أدب المقاومة من تقديم الدكتور نادر القِنَّة.

والله ولي التوفيق، والمجد والخلود للراحل الكبير الصديق محمد يوسف.

المراجع: 1- أرتيكاريا العسكريتاريا (ص 42-144). 2- كمنجة التوت (ص 153-176). 3- التربية الحديثة والخيال العلمي (ص 39 – 85). 4- بيني وبين الشعراء (ص 48).

الخيول وأنواع الحيوان الأخرى
في الشعر العربي المعاصر

لقد استحوذت الخيول على اهتمام الشعراء في العصور القديمة لأنها كانت أهم وسيلة من وسائل التنقل في السلم والحرب. ولا يكاد يخلو شعر شاعر واحد من الشعراء القدماء من ذكر الخيل ووصف وتصوير حبهم وإيثارهم لها كما نرى في شعر امرىء القيس ومهلهل بن ربيعة والحارث بن عوف المري والمتنبي وسواهم.

وقد استمر ذلك حتى بدايات القرن العشرين حيث بدأت وسائل المواصلات الحديثة تسحب البساط من تحت أقدام الخيل فأصبح ذكرها في شعر الشعراء المعاصرين يختلف في طريقة تناوله عن الطرق التي كان يستخدمها الشعراء القدماء.

ومن بقايا مظاهر الاهتمام بالخيل أن سلاح الدبابات في كثير من الجيوش ما زال يطلق عليه اسم "سلاح الفرسان"، كما أن بعض الشعراء يطلقون على دواوينهم أسماء لها علاقة بالخيول وما يتعلق بها. وعلى سبيل المثال فقد صدر لي عام 1985م ديوان شعر عنوانه (وتبقى الفوارس قرب الجياد). وللدكتور حلمي الزواتي ديوان أطلق عليه اسم (ترفض السرج الجياد). وللشاعرة جوهرة السفاريني ديوان عنوانه (خيول لا تنام). ومهما يكن من أمر فإن ذكر الخيل في الشعر المعاصر يتخذ مظاهر مختلفة. فهو عند رائد الشعر الحديث محمود سامي البارودي لا يزال على الصورة التي عهدناها له عند القدماء لأن البارودي كان من أدباء "السيف والقلم"، فهو وزير الحربية في وزارة أحمد عرابي باشا الذي ثار على الإنجليز والخديوي توفيق. يقول البارودي مفتخراً ببسالته في خوض الحرب:

وبحـر مـن الهيجـاء خضـتُ عبابَـه ... ولا عاصـمٌ إلا الصـفيحُ المُشَـطَّبُ
توسـطتُهُ والخيـل بالخيـل تلتقـي ... وبـيضُ الظُّبـا فـي الهـام تبـدو وتغـربُ
فمـا زلـت حتـى بـيَّنَ الكـرُّ مـوقفي ... لـدى سـاعة فيهـا العقـول تُغيَّـبُ

ويقول واصفاً ثباته في المعركة:

ولمـا تـداعى القـوم واشـتبك القنـا ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزيـن للنـاس الفـرار مـن الـردى وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
صـبرت لهـا حتـى تجلـت سماؤها وإنـي صـبور إن ألـم بـي الخطـب

ولجوهرة السفاريني مستصرخة فرسان أمتها لتحرير الأرض:

أين الفوارس تعلو فوق أسرجة لا الليـل يقعـدها لا الـذل والعـار

ولها من قصيدتها "نداء الروح":

ولتصهل الخيل في ساحاتنا ودعوا كـل النسـور تغطـي السـهل والجـبلا

وفي قصيدتي نشيد الخلاص مصوراً اعتذاري عن الهزيمة التي لحقت بالعرب سنة 1948:

لإن قد كبا بالأمس مهري فطالما جرى خبباً للفوز مرتفع الصدر

وفي أول قصيدة من قصائد ديواني (وتبقى الفوارس قرب الجياد) أقول مصوراً استنفار المناضلين العرب للوقوف في وجه الأعداء:

وتبقـى الفـوارس قـرب الجيـاد وتبقـى الأصـابع فـوق الزنـاد
ويبقـى الحنـين يـذيب القلـوب إلـى كـل طـود إلـى كـل واد
إلـى كـل زيتونـة فـي المـروج إلـى كـل داليـة فـي الوهـاد
إلـى كـل بيـارة فـي السـهول يفـوح شـذاها بعطـر الـوداد

وقد لا يذكر الشعراء المعاصرون الخيل بصراحة بل يذكرونها من خلال إبراز صور تتضمن استشعارات ترشيحية تدل على وجودها كقولي من قصيدة (سيزيف الفلسطيني):

اصعد سيزيف إلى القمة
اصعد وتشبث بالقمة
واجل الغمة
فالقمة في شوق زائد
للفارس للبطل العائد

ومن ذلك قولي من قصيدة عمّان وهي من ديوان (خميلة الروح):

واعتصـــموا قالهـــا إلهـــي
فكيـــف نبقـــى بـــلا اعتصـــام
والله قـــال لنـــا اعـــدوا
كـــي ترهبـــوا عصـــبة الظـــلام

وقولي في قصيدة (سبط الرسول):

فاستأســد الفئــران فــي أكنافهــا واستســلم الفرســان للخصــيان

ولي من قصيدتي (أما آن أن تستيقظوا) أبيات أتساءل فيها عن أسباب الهزائم التي يمنى بها العرب:

بنــي أمتــي إنــا غــدونا قبــائلاً يمزقهــا خلــف وتنهشــها قضــب
أشــداء إذ نلقــى بنــي عمنــا وإن أغــار علينــا الخصــم مزقنــا الرعــب
ومـا عـن ونـى فينـا، ولـيس عديدنا قلـيلاً، ومـا فـي خيلنـا سـابح يكبـو
ولــيس بنــا فقــر، فهــذا ثراؤنــا تقلـب فـي أعطافـه الشـرق والغـرب
ولكنــه حــب الحيــاة أضــلنا وأوهــى أمانينــا فتــاه بنــا الــدرب

وللشاعرة مريم الصيفي من قصيدة لها بعنوان (حلم يتحقق) تصور فيها فرحتها بصالونها المعروف وتشيد في الوقت نفسه ببعض الشعراء الذين يداومون على ارتياده، فتقول:

وأبــو نــزار فــارس فــي ســاحة للشــعر قــد مشــق القــوافي وابتــدر
كـي نرتـوي مـن سلسـبيل قصـيده ونمتـــع الأرواح بـــاللحن العطـــر

ومن ذلك قول الدكتور الشاعر المصري صلاح عيد من قصيدة بعنوان (الذوق والحجا) مهداة إلى كل من الدكتور رجا سمرين وجودة أمين:

تـــرى قصـــيده ذاك المدجـــــجا
معنـــاه فـــارس للفـــظ أســـرجا
قـــد رق مدخـــلا وراق مخـــــرجا

ومن الأبيات التي صوَّرتُ فيها قيام الخيل في عصرنا بأدوار لا تليق بها وهي من قصيدة انتظار التي نظمتُها بمناسبة صدور ديوان (انتظار) للشاعرة مريم الصيفي:

رؤاك مخيفـــة يـــا أم عمـــرو تلـــون بالأســـى أيـــام عمـــري
وأســـئلة لـــديك تلـــح لكـــن إجابتهـــا تفجـــر كـــل صـــدر
لأنـــا لـــم نعـــد يـــا أم عمـــرو كمـــا كنـــا نصـــارع كـــل شـــر
وأمســـت لعنـــة الـــزمن المـــداجي تطـــارد خيلنـــا فـــي كـــل قفـــر
فقـــدمت اســـتقالتها خيـــول نـــذرناها لفـــتح ثـــم نصـــر
وأمســـت بهلوانـــات ذلـــولا بســـرك الخـــزي تقفـــر ثـــم تجـــري
فتضـــحك مـــن تلويهـــا البرايـــا إذا عرضـــت علـــى شاشـــات قهـــري

وللشاعر السوري علي دُمَّرْ مفتخراً بماضي أمته التي حررت العالم القديم ونقلت إليه رسالة الإسلام قوله:

نحـــن قـــوم لنـــا الفخـــار إذا مـــا قـــد ذكرنـــا مـــع الفخـــار الجـــدودا
يـــوم هـــدوا هياكـــل الجهـــل والبغـــي وشـــادوا للعلـــم صـــرحا مشـــيدا
وجـــروا فـــوق هـــذه الأرض كـــالأموا ج زحفـــا وكالرمـــال عديـــدا
فـــي ظهـــور الجيـــاد طـــاروا خفاقـــا يحملـــون الحديـــد يفـــري الحديـــدا

ويقول مذكراً بما فعله الفرسان العرب في معركة ذي قار وهي أول معركة ينتصف فيها العرب من الفرس قبل الإسلام:

قـــومي ذوي عـــزة مـــالان عودهمـــو لظلـــم بـــاغ ولاذوا لـــذي غلـــب

سل جند فارس في ذي قار ما فعلوا والقادسية مالاقت من الحرب
لما مشت لجهاد الظلم خيلهموا داست حوافرها الدنيا ولم تهب

ويقول واصفاً مشاركته في رحلة صيد في صحراء تدمر العربية:

وإذا عروس الصبح شق خباؤها واكتظت الأجواء بالأطيار
طرنا على الخيل العتاق كأننا حين بدت في البر للنظار
في فتية صيد سلالة يعرب من كل أسمر زينه السمار

ويقول الدكتور حلمي الزواتي من قصيدة له بعنوان (ترفض السرج الجياد)، وفي هذه القصيدة تتحول غزة عند الشاعر إلى ممرضة تعصب جراحه وتبشر بأن طريق العودة إلى القدس ممهد وأن العروبة تبرأ من الخيول التي تدعي الانتماء إلى أصلها العربي مادامت محجمة عن سلوك ذلك الطريق. يقول:

وغزة تأتي
لتعصب قلبي وتلثم جرحي
وتخبرني الآن بأن الطريق إلى القدس دربي
وإن الخيول التي لم تلد بالحجاز
وأرض الجزيرة ليست بخيلي

وفي هذه القصيدة يصور لنا حلمي الزواتي فشل جميع المحاولات الخبيثة الهادفة لترويض الجياد العربية الجامحة وإجبارها على قبول سروج التدجين:

تذوب المسافة بين روما وكرم الخليل
وتخرج بيروت في موكب النصر
تلتاع شوقاً لأرض الجليل
وتعبر درب المسودة
تحرق بالنار وجه الدخيل

تعيد العلاقة بين الخيول وبين الصهيل

وقد لجأ الشعراء المعاصرين إلى وصف الحصان العربي وصفاً خارجياً ومن هؤلاء الشاعر السوري محمد عبدالله القولي الذي يقول في قصيدته "أنشودة المجد" وهي من ديوانه (خلق الله):

ارقص على نغم السنابك يا حصان واختل كما تهوى بسلم أو طعان
يا أنت والخيلاء منذ وجدتما جمع الهوى قلبيكما، متلازمان
اطلق صهيلك ناشطاً في حومة لا تنتهي جنباتها طول الزمان
يا أنت والسيف الصقيل وفارس رمز البطولة في نواظمها الحسان
أنشودة المجد العريض لأمة منحت نجائبها المعزة والأمان
اقدح زناد الصخر يرسل ناره واطو الفيافي يرتهب منك المكان
آلى بك الرحمن في قرآنه فشرفت مزهواً وما ذقت الهوان

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى رائعة في الجمل وهي في الديوان الذي أشرنا إليه، يقول في وصف الجمل من تلك القصيدة:

يا حادي الركب قد هامت بك الإبل واستأنس الليل وانقادت لك السبل
يا حادي الركب كم في الركب من دنف قد شفه الوجد للأحباب يرتحل
يطوي الفيافي وطير الشوق يسبقه إلى الأحبة.. تقفو إثره الإبل
لا تشتكي الجوع إن طال المسير بها ففي السنام عطاء راح ينهمل
والماء إن عز في الصحراء مورده ففي الحشا حوض ماء ليس ينخذل
والأرض إن خشنت أو لان ملمسها فلا تبالي لها الأخفاق منتعل
صبورة مثلما الرحمن أنشأها في أي حال من الأهوال تنتقل
قوية تحمل الأظعان ماخرة بحر الرمال فما يودي بها ثقل
سفائن هيئت من مبدع سطعت آياته ما بها ثلم ولا خلل

ولم يقتصر ورود ما خلق الله من أنواع الحيوان على الخيل والإبل في الشعر الحديث بل إننا نجد أن الشعراء قد أوردوا كثيراً من أنواع الحيوان في قصائدهم سواء على سبيل الحقيقة أو الرمز، وذلك كقولي من قصيدة (المحروسة) التي ذكرت فيها النعام والغزال:

قــد طَعِمــتُ النعــامَ فــي أرض مصــر
لـــم أذُقـــه فـــي أي أرض ســـواها
وأكلـــتُ الغـــزالَ لحمـــاً شـــهياً
فـــي رُباهـــا، فمـــا ألـــذَّ جناهـــا!
دُمــتِ يــا مصــرُ دار خيــر وفيــرِ
فيـــه تلقـــى نفوسُـــنا مُشْـــتهاها

ومن ذلك قولي في قصيدة غزلية وفيها ذكر للغزال:

مـــن قـــد رأى مـــن قبـــل ذا ســـحراً توصـــل للكمـــال
حوريـــة مـــن جنـــة الفـــردو س فـــرت كـــالغزال
بـــرزت فـــأرزى حســـنها ببهـــاء ربـــات الحجـــال

ومن ذلك قولي في وصف حسناء بالمهاة:

مهـــاة كـــأن الله براهـــا مـــن المـــاء والنـــور ثـــم الهـــوى
فجـــاءت كطيـــف النســـيم العليـــل يمازجـــه عطـــر زهـــر الربـــا

وهنالك عدد من قصائدي الرمزية الموضوعية التي جعلت من بعض أصناف الحيوان أبطالاً لها، منها قصيدة "رسالة من الثعلب إلى الكلب" وهي قصيدة يعيب فيها الثعلب على الكلب قبوله بالعيش في كنف الإنسان وخضوعه له:

يقول الثعلب في رسالته لابن عمه الكلب:

قــد رضــيت العــيش فــي الــذل لــدى مـــن أحـــالوك جبانـــا وحثالـــة

لـــم تـــذق حريـــة العـــيش التـــي حـــددت للخلـــق مـــذ كـــان مآلـــه
لـــم تجـــرب عيشـــة الحـــر الـــذي تخـــذ الكهـــف مـــلاذاً وجبالـــه
ويغـــذي نفســـه مـــن كـــده حيـــث يقضـــي العمـــر فـــي أحســـن حالـــة

ويستمر الثعلب في رسالته مصوراً ظلم الإنسان وجبروته وجنايته على بعض أصناف الحيوان والطير

ظلـــم البيئـــة والـــنفس ومـــا حـــاز مـــن نـــوق ولـــم يـــرحم بغالـــه
خـــرم الأوزون وانهـــال علـــى خيـــر غـــاب الأرض نفعـــاً فأزالـــه
حلـــق الطيـــر لينجـــو هاربـــاً مـــن أذاه فـــانبرى يبـــري نبالـــه
ثـم غـاص الحـوت فـي البحـر فلـم يحمـــه الغـــوص لأن الصـــيد طالـــه
إنـــه أمكـــر مخلـــوق علـــى هـــذه الأرض فـــلا تـــأمن حبالـــه

وفي رد الكلب على رسالة الثعلب، يوضح له أنه مخلوق قدري يقر بسيادة الإنسان الذي جعله الله خليفة له في الأرض، وأنه لا بد من تقديم بعض التنازلات مادام يرغب في العيش بسلام مع الإنسان الذي يحبه ويرعاه. يقول الكلب في معرض رده على ابن عمه الثعلب:

إليـــكَ يـــا ثعلـــبُ يـــا بـــنَ عمَـــي رســـالةً أبُـــثُ فيهـــا همِّـــي
إنـــي رَضـــيتُ العـــيشَ فـــي ســـلام فـــي كَنَـــفِ الإنســـانِ كالحمـــامِ
والعـــيشُ فـــي الســـلام منَّـــا يَقْتَضـــي قَبـــولَ مـــا لا نَشْـــتَهي أو نَرْتَضـــي
وقـــد تحاملـــتَ علـــى الإنســـانِ وحبِّـــهِ للجـــاهِ والسُّـــلطانِ
مـــع أنـــه خليفـــةُ الخّـــلاَّقِ فـــي أرضِـــهِ وَسَـــيِّدُ الآفـــاقِ

ويستمر الكلب في وصف ميزات الإنسان على غيره من المخلوقات إلى أن يقول:

لـــذا رضـــيتُ أن أعـــيش عنـــدَهُ مُحْـــتَمِلاً ضـــلالَهُ وَرُشْـــدَهُ

وســـوفَ لـــن أنســـى لـــه جمـــيلاً مهمـــا بـــدا فـــي حَجْمِـــهِ ضـــئيلاً

وإننـــــــي أُقِـــــــرُّ بالســـــــيادهْ لجنسِـــــــــــــهِ وقـــــــــــوّة الإرادة

وهـــل أنـــا أقـــوى مـــن البُعْـــرانِ والخَيْـــلِ والأفْيـــالِ والثيـــرانِ

وكُلُّهـــا يـــا صـــاحِبي مُســـيَّرهْ فـــي خدمـــةِ الإنســـانِ لا مُخيَّـــرهْ

فَكُـــفَّ عـــن حثـــي علـــى العصـــيانِ ونبـــذِ حُـــبِّ العـــيشِ فـــي أمـــانِ

واســـــتغفِرِ اللّـــــهَ وَعُـــــدْ للحَـــــقِّ فهـــو الـــذي يُـــديرُ شـــأنَ الخَلْـــقِ

وهـــو الـــذي يُضِـــلُّ مَـــنْ يشـــاءُ ويمـــــنحُ الهَـــــدْيَ لِمَـــــنْ يَشـــــاء

الأسنان في اللغة العربية

لم تحفل لغة من اللغات بالأسنان بقدر ما حفلت اللغة العربية. وإذا رجعنا إلى معجمات اللغة فإننا سنجد أنها قد تتبعت أنواع الأسنان وأسماءها عند الإنسان والحيوان.

ففي لسان العرب نجد أن السن هو الضرس، وهو واحدة الأسنان، وهي مؤنث.

وفي الأمثال: لا آتيك سن الحسل. أي لا آتيك أبداً. والحسل ولد الضب وسنه لا تسقط أبدا.

يقول أبو جرول الجشمي في رثاء رجل قُتل من أهل العالية فحكم أولياؤه في ديته فأخذوها كلها إبلاً ثنيانا، فقال في وصف الإبل التي أُخذت في الدية:

فجـــاءت كسِـــنِّ الظبـــي لـــم أر مثلهـــا ســـــناء فتيـــــل، أو حلوبـــــة جـــــائع

وفي قوله: كسن الظبي يعني أنها ثنيان، والظبي لا تنبت له ثنيّة قط، فهو ثنيٌّ أبداً... وزعموا أن الضب يعيش ثلاثمائة سنة، وهو أطول دابة في الأرض عمراً.

وجمع "سِنّ" أسنان، والسِّنُ: الأكل الشديد. وسَنَنْتُ الرجل: عضضته بأسناني، وسننتُ الرجل سَنًّا: كسرت أسنانه. والسِّنُ من الثوم: حبَّةٌ من رأسه (على التشبيه) والسِّن: العُمْرُ.

قال الأعور الشني يصف بعيراً:

قَرَّبـــــتُ مثـــــل العَلَـــــمِ المُبَنَّـــــى لا فـــــانيَ السِّـــــنِ وقـــــد أَسَـــــنَّا

أي قدمت جملاً سميناً يشبه الجبل العالي.

ويقول أبو جهل مفاخراً بشجاعته:

مـــا تـــنقم الحـــرب العـــوان منـــي بـــازل عـــامين حـــديث ســـني

أي أنه شديد محتنك، أو أنه شاب قوي حديث السن كبير العقل.

وأسن الرجل: كبر، ويقال: فلان سن فلان وثِنُّهُ وخِتنُهُ أي "لدته" أو هو مماثل له في العمر.

والأسنان كلها إناث إلى الأضراس والأنياب فمذكرة.

وقيل يؤنث ويذكر. وأنكر الأصمعي تأنيثه.

ومن الألغاز قول بعض الشعراء:

ومـــا ذَكَـــرٌ فـــإن يكبـــر فـــأنثى شـــديدُ الأَزْمِ لـــيس لـــه ضُـــروسُ

وجوابه: القراد، لأنه إذا كان صغيراً كان قراداً فإذا كبر سمي حَلَمَة.

وأضراس العقل أربعة يخرجن بعدما يستحكم الإنسان.

والضَّرَسُ: خَوْرٌ وكلال يصيب الضِّرس أو السن عند أكل الشيء الحامض.

وناقة ضروس: هي التي تعض حالبها. وثوب مُضَرَّسٌ: مُوَشًّى. وأصبح القوم ضِراساً أي جياعاً لا يأتيهم شيء إلا أكلوه من شدة الجوع. وحرب ضَروس: أكول عضوض. والمُضَرَّسُ من الرجال: الذي قد أصابته البلايا. ورجل ضَرِسٌ وضريس: صعب العريكة قوي. وفلان ضرس من الأضراس: داهية من الدواهي. والضَّرِسُ: المطر الخفيف.

والثَّنِيَّة: واحدة الثنايا من الأسنان. وثنايا الأسنان: هي أسنانه الأربع التي في مقدمة فمه، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل.

والثنيُّ من الإبل هو الذي تسقط ثنيَّته ويكون ذلك في السنة السادسة من عمره. أما ثنيُّ الغنم سواء كان كبشاً أو تيساً فإن ثنيته تسقط في الثالثة.

ويجوز التضحية بالجدع من الضأن وهو الذي أكمل السنة، أما في الماعز والبقر والإبل فلا بد من أن يكون ثنيّاً.

وفي المثل: (فلان طلاّع الثنايا) إذا كان سامياً لمعالي الأمور. وفي خطبة الحجاج: "أنا ابن جلا وطلاع الثنايا. أراد أنه جَلْدٌ يرتكب الأمور العظام.

*****

ويقال بَزَلَ البعير يبزل بزلا وبُزولاً: طلع ويقال بعير بازل وناقة بازل (يستوي في ذلك المذكر والمؤنث) ويكون ذلك في السنة التاسعة، وربما بزل في الثامنة والبازل أيضاً اسم للسن التي تطلع وقت البلوغ. ويقال رجل بازل: أي كامل العقل.

*****

والسن في لغة اليمن: البَزْمُ، والبزم: العض بمقدمة الأسنان وهي الثنايا والرباعيات. ويقال: بَزَمَتْهُ بازمة من بوازم الدهر: أي أصابته شدة من شدائده. ويقال هو يأكل البَزْمَةَ إذا كان يأكل وجبة واحدة في اليوم.

*****

والرباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا والتي تقع بين الثنيَّة والناب، وتكون للإنسان وغيره، والجمع رباعيات. قال الأصمعي: للإنسان من فوق ثنيتان ورباعيتان بعدهما ونابان وضاحكان وستة أرحاء من كل جانب وناجذان، وكذلك من أسفل.

*****

والنواجذ: أقصى الأضراس، وهي أربعة في أقصى الأسنان بعد الأرحاء، والمفرد ناجذ، وهو ضرس الحلم لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل. وقيل: إن الأضراس كلها نواجذ. ويقال: ضحك حتى بدت نواجذه.

والنجذُ: شدة العض بالناجذ. وفي الحديث: عُضُّوا عليها بالنواجذ: أي تمسكوا بها.

وقد أسهب كثير من الشعراء في وصف جمال الأسنان عند المرأة ، وسأكتفي بإيراد بعض الأبيات التي وردت في بعض قصائدي حول هذا الموضوع: قلت:

إنـــي أعـــيش علـــى الـــذي نهلـــت أشـــــواق قلبـــــي مـــــن ثنايـــــاك

وقلـــــت: وتبســـمت فكأنمـــا درر شـــــعت بنـــــور يهتـــــك الحجبـــــا

وقلـــت: يفتـــر منـــك الثغـــر مبتســـماً عـــــن لؤلـــــؤ متناســـــق تضـــــد

وقلـت: إذا افتـر منـك الثغـر خلـت أشـعة كســـتها ذكـــاء للربـــى فـــي الأصـــائل

وقلـت: أديـر الطـرف فـي ظلمـاء نفسـي عســـى أن يشـــرق الأمـــل الخلـــوب

فـــلا ألقـــى ســـوى بـــأس مخيـــف كقـــول قـــد بـــدت منهـــا ينـــوب

وقلـــت: لله هـــذا الثغـــر مـــا أحـــلاه روحـــي ومـــا ملكـــت يـــداي فـــداه

مُـــذْ أن حســـوت رحيقـــه لـــم يبتـــرد قلبـــي بخمـــر فـــي الوجـــود ســـواه

ثغـــر كـــأن رضـــابه مـــن كـــوثر مـــــن ذاقـــــه لا يرتضـــــي إلاه

قـــد زانـــه بـــرد نضـــيد ناصـــع ســـعدت بضـــم بهائـــه شـــفتاه

وفي مجال المحافظة على نظافة الأسنان وتقويتها فقد ضمت اللغة العربية بعض المفردات التي تتعلق بذلك منها: السَّنون وهو ما تستاك به الأسنان، أو هو ما يُصنع من دواء لتقوية الأسنان وتطريتها.

الغربة والاغتراب وأثرهما في الشعر العربي

(الحلقة الأولى)

تمهيد

الإنسان مدني بالطبع، يأنس بأبناء جنسه، ويميل إلى الاستقرار في بيئته، ويألف ما يرتبط به من الأشياء، ويفي لمن يعاشر من الأهل والأحباب والأصدقاء. فإذا عرض له يا يضطره إلى مفارقة ما يحب ومن يحب، حنَّ إلى ذلك حنين الإبل إلى أوطانها، ونازعته نفسه نزوع النوق إلى أولادها.

والحنين إلى الوطن والأحباب وليد الغربة والاغتراب. والتشوق إلى الديار، والنزوع إلى الأهل والسمار عواطف يولدها البعد عن الأوطان والنأي عن الأحباب والخلان.

ولعل أبيات ابن الرومي هي خير ما يعبر عن تعلق الإنسان بوطنه وحبه لمسقط رأسه، وشدة هيامه ببلاده. فقد جمع في هذه الأبيات الأسباب النفسية التي تشد الناس إلى أوطانهم، وتربطهم بها ربطاً لا سبيل إلى انفكاك عقدته أو حل عراه.

يقول ابن الرومي في ذلك:

ولـــــي وطـــــن آليـــــت ألا أبيعـــــه وألا أرى غيـــــري لـــــه الـــــدهر مالكـــــا

عاهـــدت بـــه شـــرخ الشـــباب ونعمـــة كنعمـــة قـــوم أصـــبحوا فـــي ظلالكـــا

فقـــد ألفتـــه الـــنفس حتـــى كأنـــه لهـــا جســـد إن غـــاب غـــودر هالكـــا

وحبـــب أوطـــان الرجـــال إلـــيهم مـــآرب قضـــاها الرجـــال هنالكـــا

إذا ذكـــروا أوطـــانهم ذكـــرتهم عهـــود الصـــبا فحنـــوا لـــذلكا

وقد أبدع المتنبي أيما إبداع في تصوير شده الوفاء عند النفس البشرية لما تألف من الأشياء وما تتعلق به من ألوان الحياة حين قال:

خُلقــت ألوفــاً لــو رجعــت إلــى الصــبا

لفارقــت شــيبي موجَــعَ القلــب باكيــا

العرب والهجرة

تعرضت المجتمعات البشرية منذ أقدم العصور إلى أنواع شتى من الهجرات، اضطرها إليها البحث عن الأمن والسعي في طلب الحرية والأقوات.

والأمة العربية ليست بدعاً بين الأمم، فقد جرت عليها هذه السنة من سنن الحياة، فعرفت قبائلها الهجرات بأنواعها: عرف العرب الهجرة الداخلية في جاهليتهم لأنهم كانوا أهل حل وترحال، لا يكادون يستقرون في مكان حتى ينتقلوا إلى سواه طلباً للعشب والماء، أو فراراً من عدو، أو التماساً لثأر عند غيرهم من القبائل التي تدين لهم بالذُّحول والثارات. وعلى الرغم من أن هذا النوع من الهجرة محدود الأثر لأنه يتم داخل حدود الوطن الواحد، إلا أنه ترك أثره الواضح في شعر الجاهليين.

كان الشعراء الجاهليون يصدرون قصائدهم – وبخاصة الطويلة منها المعلقات والحوليات– بذكر المنازل والأطلال والبكاء على الرسوم الدارسة، والآثار العافية، وذكر من تحمَّلَ عنها الأهل والأحبة، وتذكر ما كان لهم فيها كثيراً من اللُّبانات، ونهلوا في خلالها من معين اللذات.

وقد نجم عن ذلك أن توحدت مشاعر الشعراء، وتجاوبت عواطفهم، وتشابهت آمالهم وأمانيهم، وأوشكت أن تتماثل أساليبهم وأخيلتهم وألفاظهم في التعبير عن تجاربهم الشعرية التي صوروا فيها أثر الغربة والاغتراب في نفوسهم.

هجرة الفتوح الإسلامية

جاء الإسلام فبدل حياة العرب، وجمعهم في ظل دولة واحدة بعد أن كانوا قبائل متناحرة يضرب بعضها رقاب بعض. وفتح المسلمون الأرض، وأورثهم الله ملك كسرى وقيصر، وأقامت جيوشهم في البلاد المفتوحة، وهاجرت إليها قبائلهم واختلطوا بسكانها الأصليين وعاشروهم، وتأثروا بهم، وأثروا فيهم.

ولكن ذلك كله لم يمنع الشعراء المهاجرين من بكاء ديارهم السابقة، فصوروا حنينهم إلى ربوعهم الأصلية في نجد والحجاز وتهامة وعسير وغيرها من بقاع الجزيرة العربية التي عرفوها قبل أن يعرفوا البلاد المفتوحة، وألفوا الحياة في أكنافها قبل أن يألفوها في أوطانهم الجديدة.

الهجرات الاضطرارية

دارت عجلة التاريخ، وعرضت للمسلمين العرب أحداث وكوارث اضطرتهم إلى الجلاء عن عدد من الأقطار التي فتحوها ومدوا فيها جذورهم قروناً عديدة، حيث سلبت منهم وأخرجوا منها بحد السيف، فكان لهذا التهجير القسري والإجلاء الاضطراري أثر كبير في نفوس الشعراء الذين أخرجوا من هذه الأقطار، وكابدوا اللوعة بسبب بعدهم عن هذه الديار.

والأمثلة عى ذلك كثيرة في شعر شعراء الأندلس وصقلية وغيرهما من الأقطار التي انحسر عنها المد العربي، أو انعدم بصورة نهائية.

الهجرة إلى العالم الجديد

في أواخر القرن التاسع عشر شرع كثير من أبناء البلاد العربية ولا سيما في سوريا ولبنان بالهجرة إلى العالم الجديد، إما هرباً من جور الأتراك، أو سعياً وراء الكسب المادي، أو بحثاً عن الحرية، أو لهذه الأسباب مجتمعة.

استقر هؤلاء المهاجرون في أقطار أمريكا الشمالية والجنوبية وكونوا جاليات ضخمة أنجبت عشرات من الشعراء.

وقد صهرت مرارة الغربة هؤلاء الشعراء في بوتقتها القاسية وألهبت مشاعرهم، ففاضت قرائحهم بشعر الحنين العذب الذي صوروا فيه شوقهم إلى بلادهم التي فارقوها.

وقد أغرقوا في ذلك إغراقاً جعل الحنين من أجود ما طرقوا من أغراض وأكثرها صدقاً في التعبير عن مشاعرهم الوطنية وأحاسيسهم القومية.

الهجرة الفلسطينية

ويستمر التاريخ في كيده للعرب، فأصابهم بنكبة جديدة أنستهم نكبة الأندلس أو كادت. فقد سلبت من أرضهم قطعة جديدة هي بمثابة القلب من الجسد، ونعني بها أرض فلسطين... تلك البقعة المقدسة التي اقتطعت من جسد الوطن العربي، وفصلت عنه، ومحيت من خرائطه بعد أن تهودت ربوعها، وتغيرت معالمها، وقُضي على مظاهر العروبة والإسلام في معظم أرجائها بعد أن ظلت هذه المظاهر سائدة فيها أربعة عشر قرناً أو تزيد.

وقد أنجبت هذه النكبة عدداً كبيراً من الشعراء الذي عرف كثير منهم نعيم الحياة في ربوع فلسطين قبل أن يُخرجهم اليهود منها مع أبناء شعبهم إخراجاً، ليهيموا على وجوههم في بقاع المعمورة، مصورين في شعرهم سخطهم وغضبهم وثورتهم وحقدهم على من تسبب في ضياع بلادهم وتشتيت شعبهم.

وقد بكوا مجد أمتهم الضائع وعزتها الغاربة، وصوروا حنينهم إلى مدنهم وقراهم التي تساقطت في أيدي اليهود مدينة بعد مدينة، وقرية إثر قرية، كما بكى أسلافهم الأندلسيون مدن الأندلس وقراها بعد أن وقعت واحدة تلو الأخرى في أيدي الأسبانيين.

وما زالت مأساة فلسطين وما نجم عنها من تشريد وتهجير تفعل فعلها في شعر شعرائها، وتمد الشعر العربي المعاصر بمعين لا ينضب من شعر الغربة المفجع، والحنين الموجع,

وبعد؛ فقد آن لنا أن نتعرف على أثر الغربة والاغتراب في الشعر العربي عبر عصوره المختلفة.

أثر الغربة والاغتراب في الشعر الجاهلي

منذ أطلق امرؤ القيس دعوته إلى صاحبيه ليشاركاه الوقوف والبكاء على منازل الأحبة وذكرياته معهم... تلك الديار التي غيرت معالمها رياح الجنوب والشمال، ومحت رسومها الأمطار، ولكنها لم تتمكن من محوها من ذاكرة الشاعر وقلبه... منذ ذلك الحين والشعراء لا يكفون عن تصوير ما تفعله الغربة في نفوسهم، وما يحدثه الاغتراب في حياتهم من ألم واضطراب وإحساس بالخسران والضياع، وما يثير في نفوسهم من لوعة وحنين وشكاوي وأنين.

بل إن امرأ القيس هذا –وهو أسبق شعراء العربية إلى ابتداع المعاني والتعبير عنها، وأقدم شاعر عربي حفظت له كتب الأدب والتاريخ آثاراً شعرية لا شك في صحة نسبتها إليه– قد بين لنا في إحدى قصائده بأن هناك شعراءً أقدم منه قد وقفوا على ديار الأحبة وبكوها قبله. يقول في ذلك:

عُوجـــا علـــى الطلـــل المُحيـــل لعلَّنـــا

نبكـــي الـــديار كمـــا بكـــى ابـــن خِـــذام

صحيح أننا لا نعرف شيئاً عن ابن خذام هذا، ولم يصلنا شيء من شعره الذي وقف فيه على ديار أحبائه يبكيهم، ويندب ذكرياته معهم، ولكن الصحيح كذلك هو أن امرأ القيس ما كان ليقول ذلك لو لم يكن قد سمع بابن خذام وعرف عنه، وحفظ له.

مرت حياة امرىء القيس في مرحلتين متميزتين:

مرحلة اللهو والعبث والمجون، وهي المرحلة التي عاشها قبل مصرع أبيه، ومرحلة الجد والصرامة وطلب المجد، وهي التي أعقبت رحيله إلى بلاد الروم ليتصل بقيصرهم "بوستنيانوس" ويلتمس منه مساعدته في استرداد عرش أبيه والثأر من قتلته بني أسد.

ويتضح لنا من ذلك أن امرأ القيس قد جرب ألوان الغربة المختلفة، وعانى من آثارها جميعاً، فقد اختار لنفسه في المرحلة الأولى لوناً من الحياة جعله لا يكاد يستقر في مكان حتى يغادره إلى غيره، يتساقى مع صحبه كؤوس الخمر، ويتتبع النساء، ويمارس رياضة الصيد مع أمثاله من المجان والمتصعلكين.

وفي المرحلة الثانية جشَّم نفسه عناء الاغتراب، فشَخَصَ مع أخلص أصدقائه إلى حاضرة الروم تنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه، بعد أن تناهى إلى سمعه نبأ مصرع أبيه.

وقد تركت هاتان المرحلتان وما كابد فيهما من مرارة الغربة وقسوة الاغتراب أثرها الكبير في شعره، بل إننا نزعم أن أثر هذا العامل في شعره يفوق أثر غيره من العوامل، إذ لا تكاد تخلو منه قصيدة واحدة من قصائده الطوال.

لقد بدأ امرؤ القيس كثيراً من قصائده بالوقوف على الأطلال وبكاء ديار الحبيب، ووصف رسومها، وتصوير ذكرياته في مغانيها.

وأول ما يستوقفنا من قصائده التي طرق فيها هذه المعاني معلقته التي يعدها المؤرخون أولى المعلقات وأكثرها حظّاً في الشهرة بين قصائد الشعر الجاهلي، وقد بدأها بقوله:

قفــا نبــك مــن ذكــرى حبيــب ومنــزل بســقط اللــوى بــين الــدخول فحومــل

فتوضِــحَ فــالمقراةَ لــم يَعْــفُ رســمُها لمــا نســجتهُ مــن جنــوب وشــمأل

ويسترسل امرؤ القيس في وصف ما فعله البين في نفسه يوم الرحيل فيشبه دموعه التي تهمي بغزارة لفراق الأحبة بدموع إنسان يقوم بنقف الحنظل فاستحق بذلك تعاطف صحبه الذين راحوا يطالبونه بالتحمل والتصبر حتى لا يهلك من الأسى والحزن:

كــأني غــداة البــين حــين ترحلــوا لــدى ســمُرات الحــي نــاقِفُ حنظَــلِ

وقوفــا بهــا صــحبي علــي مطــيهم يقولــون لا تهلــك أســىً وتجمَّــلِ

ولكن الشاعر يجيب صحبه بأن شفاءه مما به لا يكون إلا بسفح الدموع وإراقتها، على الرغم من علمه بأن سفح الدمع عند رسوم الأحبة الدارسة دواء لا يعول عليه في شفاء النفس مما تكابد من الحزن:

وإن شـــــفائي عَبْـــــرَةً مُهْراقـــــةً فهـــل عنـــد رَسْـــمٍ دارسٍ مـــن مُعَـــوَّلِ؟!

ونمضي قدماً في قراءة هذه المعلقة لنجد أن جميع ما اشتملت عليه من أغراض ظن الباحثون أنه لا رابط بينها إلا الوزن والقافية، إنما هي في حقيقة الأمر وواقعه مستوحاة من أثر الإحساس بالغربة والارتحال... إنه يصور لنا الأحداث التي دعتها ذاكرته مع مجموعة من صويحباته في هذه الديار من أمثال: أم الحويرث وجارتها أم الرباب، وعنيزة ورفيقاتها اللواتي عقر لهم مطيته بدارة جلجل، وفاطمة بنت عبيد بن ثعلبة العذرية وغيرهن، كما يصور لنا الليل الطويل الذي يعمق إحساسه بالغربة والاغتراب، ويصور وادي العير الذي لا يسكنه أحد غير الذئاب الجائعة، والتي لم ينجه منها سوى حصانه القوي السريع الذي يلحق بالأوابد الوحشية، والذي أسهب في وصفه إسهاباً جعله في مقدمة وصاف الخيل من الشعراء.

وقد صور لنا كذلك بعض الأحداث التي كان يتسلى بها عن الغربة، ويستعين بممارستها على تخفيف وطأتها.. من ذلك: قيامه على خدمة صحبه، وممارسة رياضة الصيد، وانهماكه في وصف المطر الغزير وما فعله بجبل القانان –وهو جبل من جبال بني أسد– وتيماء وجبل ثبير والمُجَيْمر في أرض بني فزارة ووحوشها التي أغرقتها السيول فتناثرت وكأنها أنابيش عنصل– وهو البصل البري.

يقول في تصوير ماكان بينه وبين أم الحويرث وجارتها أم الرباب قبل الرحيل:

كـــدأبك مـــن أم الحـــويرث قبلهـــا وجارتهـــا أم الربـــاب بمأْسَـــلِ

إذا قامتـــا تضـــوَّعَ المســـك منهمـــا نســـيم الصَّـــبا جـــاءت بريَّـــا القَرَنْفُـــلِ

ففاضـــتْ دمـــوعُ العـــين منـــي صـــبابةً علـــى النحـــر حتـــى بـــلَّ دمعـــي مَحْملـــي

ويقول في وصف يوم دارة جُلجُل، وما كان بينه وبين عنيزة ورفيقاتها فيه:

ألا رُبَّ يـــومٍ لـــك مـــنهن صـــالحٍ ولا ســـيما يـــومٌ بـــدارةِ جُلجُـــلِ

ويـــوم عقـــرت للعـــذارى مطيتـــي فيـــا عجبـــاً مـــن رَحلِهـــا المتحمـــلِ

فظـــل العـــذارى يـــرتمين بلحمهـــا وشـــحم كهـــداب الـــدِّمَقْسِ المُفَتَّـــلِ

ويـــوم دخلـــتُ الخـــدرَ خـــدر عنيـــزةٍ فقالـــت لـــك الـــويلات إنـــك مُرْجلـــي

تقـــول وقـــد مـــال الغبـــيط بنـــا معـــاً عقـــرت بعيـــري يـــا امـــرأ القـــيس فـــانزلِ

فقلـــت لهـــا ســـيري وأرخـــي زمامـــه ولا تبعـــديني مـــن جنـــاك المعلـــلِ

ويقول في وصف الليل الطويل الذي يعمق إحساسه بالغربة والوحدة:

ألا أيهـــا الليـــل الطويـــل ألا انجـــلِ بصـــبح ومـــا الإصـــباح منـــك بأمثـــل

فيـــا لـــك مـــن ليـــل كـــأن نجومـــه بكـــل مُغـــار الفتـــل شُـــدَّت بيـــذبل

كـــأن الثريـــا عُلِّقَـــتْ فـــي مصـــامها بـــأمراس كِتّـــان إلـــى صُـــمٍّ جَنْـــدَل

أجل، إن ليل امرىء القيس المغترب عن أحبابه وديارِه طويل لا يزمع الانجلاء، والشاعر يتمنى انبلاج الصبح، وإن كان يدرك أن نهار المغترب لن يكون أفضل من ليله مادام الإحساس بالغربة وآلامها لا يبارحه.

عجبا لهذا الليل الذي لا يريد أن ينقضي! لكن نجومه مشدودة مربوطة في مكانها بأمراس قوية من الكتان!!

لم تكن معلقة امرىء القيس هي القصيدة الوحيدة التي بدأها بالوقوف على الأطلال والبكاء عليها ووصف ما كان له من ذكريات مع قطانها... فقد فعل ذلك في العديد من قصائده.

وها هو يقف على أطلال ديار صاحبته سلمى بعد ثلاثين شهراً من رحيله عنها ويُلقي عليها تحية الصباح وإن كان يعلم حق العلم أنها لن ترد له تحية، إذ كيف ينعم من كان أقرب عهده بالنعيم ثلاثين شهراً وقد تعاقبت عليه ثلاثة عوامل مدمرة هي: اختلاف الرياح عليه، وملازمة الأمطار له والقدم المغير لمعالمه.

ألا عـــم صـــباحا أيهـــا الطلـــل البـــالي وهـل يعمـن مـن كـان فـي العصـر الخـالي

وهـــــل يعمـــــن إلا ســـــعيد مخلـــــد قليـــــل الهمـــــوم مـــــا يبيـــــت بأوجـــــال

وهــل يعمــن مــن كــان أحــدث عهــده ثلاثـــين شـــهراً فـــي ثلاثـــة أحـــوال

ويقول في رائيته التي نظمها وهو متوجه مع صاحبه الشاعر عمرو بن قميئة اليشكري إلى بلاد الروم مصوراً معاودة الشوق له حين تذكر سليمى وديارها بعد أن كاد ينساها لانشغاله بطلب الثأر من أعدائه الذين قتلوا والده:

ســما لــك شــوق بعــد مــا كــان أقصــرا وحلـــت ســـليمى بطـــن قـــوّ فعرعـــرا

كنانيـــة باتـــت وفـــي الصـــدور ودهـــا مجـــــاورة غســـــان والحـــــي يعمـــــرا

بعينـــي ظعـــن الحـــي لمـــا تحملـــوا لـــدى جانـــب الأفـــلاج مـــن جنـــب تيمـــري

ويصل الشاعر وهو في طريقه إلى قيصر إلى حوران، فيداخله اليأس من عودة روابط الحب التي كانت تصل بينه وبين أحبابه في الجزيرة العربية وكأني قد استشرف نهايته المؤلمة، وتكشفت له حجب الغيب فأدرك أنه لن يعود إلى من كان يحب وما يحب.

فلمـــــا بـــــدا حـــــوران والآل دونـــــه نظـــــرت فلـــــم تنظـــــر بعينيـــــك منظـــــرا

تقطـــــع أســـــباب اللبانـــــة والهـــــوى عشـــــية جاوزنـــــا حمـــــاة وشـــــيزرا

ويلحظ امرؤ القيس بكاء صاحبه عمرو بن قميئة بعد أن أيقن أنهما على وشك الوصول إلى قيصر الروم، وفي ذلك ما فيه من توقع انقطاع الأمل في العودة إلى ربوع الأهل بالجزيرة العربية فيحاول تعزيته بتذكيره بعظم الغاية التي تغربا من أجلها بقوله:

بكـــى صـــاحبي لمـــا رأى الـــدرب دونـــه وأيقـــــن أنـــــا لاحقـــــان بقيصـــــرا

فقلـــــت لـــــه لا تبـــــك عينُـــــك إنمـــــا نحـــــاول ملكـــــاً أو نمـــــوت فنعـــــذرا

وهكذا يتنبأ الشاعر مرة أخرى بنهايته المتوقعة، فقد مات فعلاً وهو يحاول استرداد ملك أبيه، فعذره التاريخ والمؤرخون وإن نعوا عليه وسيلته إلى ذلك.

ويُلِمُّ امرؤ القيس بأطلال هند والرباب وفرتني في بدلان – وهو موضع ببلاد اليمن– فيحزنه ما تبقى من معالمها التي تشبه خطوطاً مسطورة في جريدة نخل، فيتذكر لياليه التي كان ينقاد فيها لهواه حيث يقضي لحظات سعيدة وأعين محبوباته ترنو إليه. وهو وإن يكن قد حُرم من مثل ذلك النعيم، فطالما تسلى عن هذا الحرمان بكشف الملمات الصعبة التي تسوَدُّ لهولها وجوه الجبناء.

لَمِـــــنْ طلـــــل أبصـــــرته فشـــــجاني كخـــــط زبـــــور فـــــي عســـــيب يمـــــان

ديـــــار لهنـــــد والربـــــاب وفرتنَـــــى لياليـنـــــا بـــــالنعف مـــــن بـــــدلان

ليـــــالي يـــــدعوني الهـــــوى فأجيبـــــه وأعـــــين مـــــن أهـــــوى إلـــــي روانـــــي

فـــــإن أُمـــــسِ مكروبـــــاً فيـــــا رب بَهْمَـــــةٍ كشـــــفت إذا مـــــا اســـــودَّ وجـــــه جبـــــان

وقد ألَمَّ امرؤ القيس بمثل هذه المعاني في عدد آخر من مطالع قصائده التي لا نرى موجباً للاستشهاد بها، وحسبنا أن نشير إلى هذه الأبيات التي اقتطفناها من سينيته التي نظمها بعد إصابته بالمرض الذي تقرح منه جلده على أثر ارتدائه للحلة المسمومة التي أهداها إليه القيصر.

يقول من هذه القصيدة وقد أحس بدنو أجله:

أَلِمَّـــا علـــى الربـــع القـــديمِ بعسعســـا كـــأني أنـــادي أو أُكَلِّـــمُ أخرســـا

فلـــو أن أهَـــل الـــدار فيهـــا كعهـــدنا وجـــدتُ مقـــيلاً عنـــدَهُمْ ومعرَّســـا

تـــأوَّبَني دائـــي القـــديمُ فغلَّســـا أحـــاذرُ أن يرتـــدَّ دائـــي فأُنْكَســـا

فلـــو أنَّهـــا نفـــسٌ تمـــوتُ جميعـــةً ولكنَّهـــا نفـــسٌ تَســـاقَطُ أَنْفُســـا

وبُـــدِّلْتُ قُرْحـــاً داميـــاً بعـــدَ صـــحةٍ فيالـــكِ مـــن نُعْمـــى تَحَـــوَّلْنَ أَبْؤُســـا

لقـــد طمَـــحَ الطَّمـــاحُ مِـــن بعـــد أرضـــه ليُلْبِسَـــنِي مِـــنْ دائـــهِ مـــا تَلَبَّســـا

أجل لقد نجح الطماح الأسدي في الكيد لعدوه عند القيصر، فأفسد عليه خطته، وفوت عليه تحقيق هدفه، فمات في ديار الغربة ودُفن في أنقرة بعيداً عن ديار عنيزة وفاطمة وسليمى والرباب وهند وغيرهن من الملهمات اللواتي أوحين إليه بأعذب الألحان.

وقد واصل الشعراء الجاهليون سيرهم في الطريق الذي اختطه لهم امرؤ القيس، وساروا على نهجه في التعبير عن الآثار التي تركتها الغربة وخلفها الاغتراب في نفوسهم.

والتدليل على ذلك من خلال تتبعنا لدواوينهم أمر لا يصعب على أحد ولكن استقراءه والإحاطة به أمر لا تدعوا إليه الضرورة، ولا يحتمله المقام. لذلك فإننا سنكتفي من ذلك ببعض الشواهد التي نراها مثبتة في دواوين شعراء المعلقات وغيرهم من فحول الشعر الجاهلي.

معلقة طرفة بن العبد

بدأ طرفة ابن العبد معلقته بوصف أطلال محبوبته خولة الكليبية... تلك الأطلال الواقعة بروابي برقة ثهمد والتي لم يبق من معالمها غير رسوم هي أشبه ما تكون ببقايا الوشم على ظاهر اليد.

وقد استوقف صحبه –كما فعل امرؤ القيس– ليشاركوه البكاء على هذه الرسوم، فاستجابوا له وواسوه ناصحين له بالصبر والتجلد حتى لا يهلك من الأسى والحسرة.

يقول طرفة:

لخولـــــة أطـــــلال ببرقـــــة ثمهـــــد تلــوح كبــاقي الوشــم فــي ظــاهر اليــد

وقوفـــا بهـــا صـــحبي علـــيَّ مطـــيهم يقولـــون لا تهلـــك أســـى وتجلـــد

ثم يمضي طرفة في معلقته فيصور لنا رحيل حبيبته من ديارها ممتطية مع صويحباتها مجموعة من الحدوج التي شبهها بالزوارق التي تتبع سفينة كما يصف جمالها ورقتها، ثم ينتقل بعد ذلك من غرض إلى غرض وفقاً للتداعي النفسي الذي يربط بين هذه الأغراض.

كـــأن حـــدوج المالكيـــة غـــدوة خلايـــا ســـفين بالنواصـــف مـــن دَدِ

وفــي الحــي أحــوي يــنفض المــرد شــادن مظـــاهر سِـــمطَيْ لؤلـــؤ وزبرجـــدِ

وتبســـم عـــن ألمـــىَ كـــأن منـــورا تخلــل حــر الرمــل دعــص لــه نــدى

ووجـــه كـــأن الشـــمس حلـــت رداءهـــا عليـــه نقـــي اللـــون لـــم يتخـــدَّدِ

أجل، إن ابتعاد طرفة عن ديار محبوبته خولة وطول عهده بها لم يمح من ذاكرته جمال عينيها وخفتها التي تشبه خفة الظبية ولا سمرة لثتها، وبياض أسنانها الذي يشبه نور الأقحوان، ولا وجهها النقي الناعم الذي يتخدد ولم تؤثر فيه حرارة الشمس.

أثر الغربة في شعر زهير بن أبي سلمى

صَدَّر زهير بن أبي سلمى معلقته بذكر أطلال أم أوفى الواقعة بين حومانة الدراج والمتثلم، ووقف عليها بعد أن غاب عنها عشرين حجة، ولم يتعرف عليها إلا بصعوبة شديدة وتمنى لو أنها تستطيع أن تكلمه وتخبره عمن حل بها من الأحباب، ولما تحقق من معرفته لها ألقى عليها تحية الصباح ودعا لربوعها باليمن والسلامة. يقول زهير:

أمـــن أم أوفـــى دمنـــة لـــم تكلـــم بحومانـــــة الـــــدراج فـــــالمتثلم

ديـــار لهـــا بـــالرقمتين كأنهـــا مراجـــع وشـــم فـــي نواشـــر معصـــم

وقفـت بهـا مـن بعـد عشـرين حجـة فلأيـا عرفـت الـدار بعـد تـوهم

فلمـــا عرفـــت الـــدار قلـــت لربعهـــا ألا عـــم صـــباحا أيهـــا الربـــع وأســـلم

ثم أخذ يصف النساء اللواتي ارتحلن عن هذه الديار، ويتتبع ظعونهن ببصره كئيباً حزيناً، ويصف الطريق التي سلكتها والهوادج التي كن فيها، والمياه التي نزلن عندها في عذوبة وسهولة وجمال:

تبصـر خليلـي هـل تـرى مـن ظعـائن تحملـن بالعليـاء مـن فـوق جـرثم

علـــون بأنمـــاط عتـــاق وكلـــة وراد حواشـــيها مشـــاكلة الـــدم

ووركـــن بالســـوبان يعلـــون متنـــه علـــيهن دل النـــاعم المتوســـم

وفـــيهن ملهـــى للصـــديق ومنظـــر أنيـــق لعـــين النـــاظر المتوســـم

ويستمر في ذلك إلى أن يقول:

فلمـــا وردن المـــاء زرقـــاً جمامـــه وضـــعن عصـــي الحاضـــر المتخـــيم

تـــذكرني الأحـــلام ليلـــى ومـــن تطـــف عليـــه خيـــالات الأحبـــة يحلـــم

أجل، إن الحجج العشرين لم تحل بين زهير وبين تذكره لأطياف أحبته التي لا تزال تلح عليه وتطيف به.

لبيد ابن ربيعة والأطلال

يبدأ لبيد معلقته بالوقوف على ديار المحبوبة التي عفت معالمها وبادت رسومها، وأصبحت مرتعاً للأوابد الوحشية، بعد أن مر على رحيل سكانها سنوات وسنوات.

وقف الشاعر على هذه الديار يسألها عمن غادرها وهو يعلم أنها لن تجيب فهي ليست أكثر من حجارة صمّاء. ثم هو يعجب من نفسه التي لا تفتأ تذكر صاحبته نوار المرية ويصف انتقالها مت موضع إلى موضع، على الرغم من علمه بما يضمره أهلها له من عداوة وشر.

لذلك فإنه ينتهي إلى نتيجة منطقية مريحة تتلخص في ضرورة قطع صلته بهذه المرأة بعد أن أصبح نوالها أمراً ميئوساً منه:

عفـــت الـــديار محلهـــا فمقامهـــا بمنـــى تأبـــد غولهـــا فرجامهـــا

دمـــن تجـــرم بعـــد عهـــد أنيســـها حجـــج خلـــون حلالهـــا وحرامـــه

فوقفـــت أســـألها وكيـــف ســـؤالنا صـــما خوالـــد مـــا يبـــين كلامهـــا

بـــل مـــا تـــذكر مـــن نـــوار وقـــد نـــأت وتقطعـــــت أســـــبابها ورمامهـــــا

مريـــــة حلـــــت بفيـــــد وجـــــاورت أهـــل الحجـــاز، فـــأين منـــك مرامهـــا

فـــاقطع لبانـــة مـــن تعـــرض وصـــله ولخيـــــر واصـــــل خلـــــة صـــــرامها

وإلى حلقة قادمة نواصل فيه رحلتنا مع الغربة والاغتراب في الشعر العربي.

(الحلقة الثانية غير متوفرة)

مذبحة دير ياسين وآثارها

نُشر هذا المقال في جريدة "الرأي" الأردنية في عددها الصادر (13340)، الأربعاء الموافق 11 إبريل عام 2007. وفي ندوة أقامتها رابط الكتاب الأردنيين؛ عاد شهود عيان وكتاب ومثقفون لواقع مذبحة "دير ياسين" المؤلم وبطولة شيوخ القرية. وقد شارك في هذه الندوة الدكتور رجا سمرين بهذه الشهادة.

دير ياسين واحدة من قرى لواء القدس، وهي إلى الغرب من عاصمة فلسطين وتلتصق بحدود أراضيها ومنازلها بحدود أراضي ومنازل مستعمرتي جُبعات شاوول وبيت هاكيرم. وتربطها بالقدس طريق معبدة ضيقة ذات مسرب واحد وترتفع عن سطح البحر نحو 770 متراً، وتبلغ مساحتها اثني عشر دونماً لا غير. أما أراضيها فلم تزد مساحتها عن 2857 دونماً تسرب منها لليهود نحو 153 دونماً.

وتنتج أراضيها الحبوب والخضراوات والفواكه والزيتون. وتعتمد في زراعتها كغيرها من القرى الفلسطينية على مياه الأمطار التي تهطل بكميات وافرة تبلغ في متوسطها 550 ملم في السنة. وقد بلغ عدد سكانها عام 1948 نحو 750 نسمة يقطنون في ما لا يزيد عن مائة بيت.

وبين دير ياسين وقريتنا قالونيا علاقات جغرافية ويدمغرافية خاصة، فهي لا تبعد عن قريتنا بأكثر من كيلومترين حيث يفصل بين بلدتنا وبينها سفح جبل "الصفحة" الذي شُيدت دير ياسين فوق قمته، والذي يعلو مستعمرة "موتسا التحتة" المجاورة لقريتنا. وكان في استطاعة أي فرد من بلدتنا أن يشاهد بعينه المجردة المنازل الغربية من دير ياسين وهو واقف في شرفة منزله أو على سطح بيته.

أما علاقتنا الديمغرافية أو السكانية بدير ياسين فتتمثل في أن عدداً من رجال دير ياسين قد تزوجوا من نساء من بلدتنا، كما أن عدداً من رجال بلدتنا قد تزوجوا بنساء من دير ياسين.

وهنالك علاقة خاصة تربطني أنا شخصياً بعدد من رجال دير ياسين الذين ربطت بيني وبينهم علاقة صداقة وطيدة لم تمح آثارها الأيام وأحداث الشتات.

وأول هؤلاء الذين ربطت الصداقة بيني وبينهم من رجال دير ياسين المرحوم الشهيد ربحي اسماعيل عطية الذي كان معلماً مثلي في مدرسة قرية "إشوع" الابتدائية في العام الدراسي 1947/1946 والذي اختبأ عند وقوع المذبحة بين أطلال منازل قريته المدمرة أكثر من سبعة أيام تمكن اليهود بعدها من العثور عليه وإعدامه رمياً بالرصاص.

وفي المرحلة الابتدائية التي أكملتها في مدرسة لفتا كان يتلقى التعليم فيها عدد من أبناء قرية دير ياسين ومنهم: محمد سمور وشقيقه عارف سمور وعبدالله محمد موسى الذي كان ينافسني في الحصول على الترتيب الثاني في الصفوف من الرابع الابتدائي حتى الصف السابع.

ومن هؤلاء الأصدقاء المرحوم الدكتور زهدي سمور عميد كلية القدس السابق وشقيقه الأستاذ زهير سمور ومحفزظ سمور وغيرهم.

أما مذبحة دير ياسين التي وقعت ليلة التاسع من نيسان–إبريل– 1948 فقد قامت بها عصابة "الإرغون تسفائي لئومي" أي المنظمة القومية العسكرية المعروفة اختصاراً بعصابة "إتسل" وكان يرأسها ويقودها الإرهابي مناحيم بيغن الذي تولى رئاسة مجلس الوزراء في الكيان الصهيوني في نهاية السبعينيات. وقد شاركت في هذه المذبحة عصابة "شتيرن" المعروفة اختصاراً باسم "ليجي" والتي أسسها الإرهابي "أبراهام شتيرن" والتي كان يقودها عند وقوع المذبحة الإرهابي اسحاق شامير الذي وصل هو أيضاً في أوائل التسعينيات إلى منصب رئيس مجلس الوزراء في الكيان الصهيوني البغيض.

وقد لعبت عصابة "الهاغاناه" دوراً هاماً في هذه المذبحة، ولكنها حاولت إخفاءه بعد أن شكلت العمود الفقري لما يسمى بجيش الدفاع الإسرائيلي.

لقد تم الهجوم على دير ياسين باتفاق مسبق مع الهاغاناه، وراح ضحية لهذا الهجوم أكثر من 260 من أهالي القرية العزّل.

وكانت القدس الغربية قبل هذه المذبحة تتعرض لضربات متلاحقة بزعامة البطل الشهيد عبدالقادر الحسيني، وكان اليهود بحاجة ماسة إلى انتصار يكسرون به الروح المعنوية الفلسطينية ويرفعون به

الروح المعنوية لديهم، فوقع الاختيار على هذه القرية الصغيرة لتكون الفريسة السهلة التي تحقق لهم هذا الهدف.

وكانوا بحاجة كذلك إلى مطار يستخدمونه لأن مطار القدس الواقع في "قلنديه" لم يكن واقعاً تحت سيطرتهم. أضف إلى ذلك كله أن عمليات الذبح هذه والإعلان عنها كانت جزءًا أساسياً من المخطط الصهيوني الهادف إلى تفريغ البلاد من أصحابها الأصليين عن طريق الإبادة والتهجير.

في فجر التاسع من نيسان –إبريل–1948 دخلت قوات الأرغون من شرق القرية وجنوبها، ودخلت قوات شتيرن من شمالها وتركوا الطريق الغربي الموصل إلى عين كارم مفتوحاً. وقد قوبل الهجوم في بدايته بالمقاومة مما أدى إلى مصرع أربعة من اليهود وإصابة أربعين منهم بجراح. ولمواجهة صمود القرية استعان المهاجمون بدعم من قوات البالماخ في أحد المعسكرات بالقرب من القدس حيث قامت هذه القوات بقصف القرية بمدافع الهاون. وعند الظهر توقفت مقاومة أهالي القرية الذين لم يكونوا يتسلحون إلا ببضع بنادق وبعض المسدسات، فبدأ الإرهابيون اليهود بنسف منازلها بالديناميت وقتل من يعثرون عليه حياً أو جريحاً بين الأنقاض بالقنابل والمدافع الرشاشة.

وقد أوقفوا عشرات من أهالي القرية إلى الحوائط وأعدموهم رمياً بالرصاص. واستمرت أعمال القتل والتدمير على مدى يومين. وقام المجرمون الصهاينة بأعمال سادية بشعة تتمثل في تشويه الجثث وبتر أعضائها، وذبح الحوامل وبقر بطونهن والمراهنة على نوع الأجنة.

وقد قام هؤلاء المجرمون بإلقاء 53 طفلاً من الأحياء خلف أسوار القدس القديمة الغربية، وطافوا بعدد من رجال القرية بعد أن وضعوهم في عدد من الشاحنات على الطريقة الرومانية القديمة في التعبير عن الانتصار، ثم أعدموهم بعد ذلك رمياً بالرصاص وألقوا بجثثهم في بئر القرية وأغلقوا فتحته بإحكام لإخفاء معالم هذه الجريمة.

وقد كان لهذه المذبحة ردود أفعال مختلفة على المستويين العربي واليهودي.

أما على المستوى العربي فقد دب الذعر في نفوس أهالي القرى المجاورة وهي قالونيا ولفتا وبيت إكسا وعين طُلما وبيت سوريك وصوبا وغيرها، فبدأ رجالها بإخلائها من النساء والأطفال وبقي

المسلحون منهم للدفاع عنها. وفيما يتعلق بالموقف في قريتنا قالونيا فقد أخرج مسلحوها ومن كان معهم من قوات جيش الإنقاذ العائلات إلى منطقة "بيت مِزّة" وهي جزء من الأراضي المملوكة لأهل بلدتنا وتقع إلى الشمال من قالونيا وهي غير مكشوفة للقوات اليهودية. وقد بقي النساء والأطفال في هذه المنطقة ثلاثة أيام بلياليهن، ولم يغادروها مع الرجال إلا بعد انسحاب قوات جيش الإنقاذ من قالونيا وإدراك القلة من مسلحي رجال قريتنا بعبثية مقاومة القوات اليهودية التي بدأت في مهاجمة قالونيا بمشاركة من قوات الهاجاناه منذ فجر اليوم العاشر من نيسان – إبريل– 1948، وقد استمروا في مهاجمتها حتى سقطت في أيديهم في الثاني عشر من الشهر المذكور. أما أنا فلم أكن موجوداً في القرية عند سقوطها لأنني كنت قد التحقت بعائلتنا في القاهرة في الثاني والعشرين من فبراير – شباط– 1948 حيث كان الوالد ومعه الوالدة وولداهما اللذان يصغراني في القاهرة منذ شهر تموز عام 1946 بحكم عمل الوالد الذي كان مرافقا خاصاً – منذ عام 1936– للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر وقائد ثورتها وزعيمها الذي لا ينازع.

وقد استمعت إلى نبأ سقوط قريتنا في مساء 48/4/12 وأنا جالس في مقهى من مقاهي ضاحية حلمية الزيتون التي كان الحاج أمين الحسيني يتخذ منها مقراً لإقامته في مصر. وقد اعتدت وأنا في القاهرة على متابعة أنباء وتطورات المعارك في فلسطين. وعند استماعي لنبأ سقوط بلدتنا دارت بي الأرض، ولم أصدق أذني، ولكنها الحقيقة المرة التي لا يمكن إخفاؤها... لقد سقطت قالونيا وسقط كثير غيرها من مدن فلسطين وقراها، وكيف لا تسقط وقد سقط على ثراها المجاهدون المخلصون من أبنائها من أمثال عبدالقادر الحسيني وحسن سلامة وإبراهيم أبو ديّه وسواهم بعد أن فقدوا الثقة بأمتهم التي وقفت تتفرج على مأساتهم دون مبالاة.

ومن المضحكات المبكيات أن قرية بيت سوريك كانت أول مكان يلجأ إليه أهالي قالونيا بعد أن غادروا منطقة بيت مزة وبعد بضعة أيام أفاق أهالي بلدتنا وهم في بيت سوريك من نومهم ليجدوا أن واحداً من أهالي بيت سوريك غير موجود فيها، لقد تركوا منازلهم لأهالي قالونيا وهربوا من بيوتهم قبل أن يهرب منها من التجأ إليهم. وعند ذلك لم يجد أهالي بلدتنا مفراً من مغادرة بيت سوريك إلى منطقتي رام الله والقدس ليستمر شتاتهم حتى الآن.

وأما ردود الأفعال الصهيونية على المذبحة فقد كانت مدعاة للفخر لدى العصابات التي شاركت بارتكابها. يقول مناحيم بيغن في كتابه (الثورة): "إن مذبحة دير ياسين أسهمت مع غيرها من المجازر الأخرى في تفريغ البلاد من 650 ألف عربي، ولولا دير ياسين لما قامت إسرائيل. وقد حاولت دعاية العدو أن تلطخ أسماءنا ولكنها في النتيجة ساعدتنا. فقد طغى الذعر على عرب أرض إسرائيل... فقرية قالونيا التي ردت قبلاً كل هجوم قامت به قوات الهاجاناه سقطت دون قتال، وكذلك أخلى العرب بيت إكسا، وكانت هاتان القريتان تطلان على الطريق الرئيسي للقدس، ولكن سقوطهما مع استيلاء الهاغاناه على القسطل مكننا من إبقاء الطريق إلى القدس مفتوحاً... وقد ساعدتنا أسطورة دير ياسين خاصة على إنقاذ طبريه وعلى غزو حيفا."

وقد حاولت بعض القيادات الصهيونية التنصل من مسؤليتها عن مذبحة دير ياسين، ومن هؤلاء قائد الهاغاناه في القدس "ديفيد شالتيل" الذي قال: "إن مذبحة دير ياسين إهانة للسلام العبري". وقد هاجمها حاييم وايزمان أول رئيس للكيان الصهيوني ووصفها بأنها: "عمل إرهابي لا يليق بالصهيونية". وقد نددت الوكالة اليهودية بهذه المذبحة ووصفتها بأنها مجرد استثناء وليست القاعدة، وأنها تمت دون أي تدخل من جانب القيادات الصهيونية بل ضد رغبتها. غير أن الحقائق أثبتت فيما بعد أن جميع التنظيمات الصهيونية كانت متواطئة وضالعة في ارتكاب هذه المذبحة وغيرها من المذابح الكثيرة التي قام بها اليهود في العديد من مدن فلسطين وقراها.

أما رد الفعل الذي ينبغي أن يستمر لدى العرب وبخاصة أهل فلسطين فهو أن تظل هذه المذبحة وغيرها من المذابح حافزاً للثأر من العدو الصهيوني حتى يعود كل شبر من فلسطين التاريخية من البحر إلى النهر إلى أصحابه الشرعيين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.